(٢)

الزعيم

الزعيـــم

كنا نتجه بالســـيارة الى الميـــدان الكبير ، الذى اعتـــاد « الحمالون » فى المدينة أن يتجمعوا ـ تحت شـجرة وارفة ، فى جانب منه ، كمكان معروف ـ يقصد اليهم فيه من يحتاجهم ٠

قلت لصديقى « مرسى » :

ـ يقع هذا الميدان كما ترى عند مدخل المدينة حيث تتجمع الأسواق فى داخلها ، وعند بداية الضواحى حيث تتوزع المناطق السكنية ، وبذلك يكون الحمالون فى الطريق الطبيعى لمن يحتاجهم ٠

قال « مرسى » وفى عينيه نظرة فضول تختلط بقطرات العرق اللامعة خلف منظاره الطبى :

ـ من الأشـياء الجميلة فى هـذه المدينـة النظام ، للمناطق السكنية مكان ، وللأسواق مكان ، للحمالين مكان ٠٠

ثم أضاف وهو يجفف عرقه :

ـ الحر وحده هو الذى فى كل مكان ٠

قلت « لمرسى » ونحن ندور فى الميـــدان لنصـــل الى موقف السيارات :

ـ ومع ذلك فهم يقضون نهارهم فى الشارع تحت ظل هـذه الشجرة قال « مرسى » ، كمن تذكر شيئا يخشى أن ينساه :

ـ من الأشياء البائسة هنا ، الأشجار ، لم أتصور أن يصبح اللون الأخضر بهذا اللون ؟

ومع أن ملاحظة صديقى كادت تفتح شهيتى للتعليق الا أننى لم أرد ، كنت مشغولا بالبحث عن مكان نترك فيه السيارة وكأنما اعداه صمتى بابداء ملاحظة جديدة لها صلة بما شغلنى عنـه فقال بنفس الدهشـــة :

ـ يخيل الى أن السيارات هنا أكثر عددا من الأشجار ومن الركاب ٠

***

« مرسى زميل الدراســة القديم ، قـدم الى هذه المدينة منذ أسبوعين للعمل ، لايزال يرى كل شىء فيها مثيرا للدهشة ، منذ أيام قليلة استأجرنا له (خالد وأنا) مسكنا مناسبا (خالد زميل الدراسة الثالث وأقدمنا فى هذه المدينة) واليـــوم اشـــترينا معه الأثاث الضرورى ، الذى بدونه لا يكون البيت بيتـا ، وزودناه بالفـلوس والنصائح اللازمة لكل وافد جديد على هذه المدينة ، وكان من أهم هذه النصائح ان يؤجل شراء المفروشات وأدوات المطبخ لحين وصول زوجه وأولاده وكنا قد تركنا خالد بجوار الأثاث لنعـــود ببعض الحمالين لنقل ما اشتريناه الى شقة مرسى » ٠

حين نزلنا من السيارة ، عبرنا الشارع فى اتجاه الشجرة التى يتجمع تحتها الحمالون ·· كانوا متفرقين تحتها بعضهم يستند بظهره الى جذعها ، وبعضهم ينام على العشب الجاف متوسدا ذراعه أو حبله ، وآخرون يجلسون متكورين ، وحين بدا واضحا أننا نتجه اليهم هبوا جميعا وتجمعوا حولنا ، ودون أن ينطق أحدهم بكلمة ، كانت عيونهم التى تحيط بها هالات من العرق والتراب تتفحصنا فى انتظار أن نفصح عن هدفنا ·

فى تلك اللحظة فقط ، رأيته ينتزع ظهره من على جذع الشجرة ، كان آخر شخص ترك مكانه فيهم ، وكأنما كانوا جميعا فى انتظاره ، فقد أفسحوا له الطريق ليتقدم الينا ، ويقول فى لهجة المسئول :

ـ نعم ؟

كان واضحا أنه أكبرهم سنا ، لعله فى الخمسين من عمره ولكن قسوة المهنة جعلته يبدو أكبر من ذلك بكثير نظراته ثابتة وجامدة لا تعبر عن شىء ، كأنها لمجرد أن يبصر بها وفى قامته انحناءة خفيفة تركتها المهنة ، ألقى الى الأرض ببقايا سيجارة كان لا يزال يدخنها ، وينفث دخانها من أنفه الطويل الذى يبدو أكبر من حجمه الطبيعى بالنسبة لوجهه المستطيل الشاحب ، الذى تنبت فيه لحية خفيفة يختلط فيها الشعر الأبيض بالأصفر ، واضح أنه لا يربيها ولا يحلقها ·

قلت : هناك بعض الأثاث أمام محل « البيت العصرى » نريد نقله الى شقة فى شارع النزهة ·

آنذاك قال الرجل بلهجة تشى بلغة البلد الذى جاء منه ليعمل فى هذه المدينة ·

ـ لا مانع ·· نذهب معكم الى المحل الآن ·

ثم جذب حبلا كان معلقا بفـرع الشـجرة وراح يلفه حـول وسطه ٠

قلت وأنا أنظر الى الحمالين المحيطين بنا :

ـ لا نريد أكثر من رجلين فالمنقولات بسيطة ، ومن هناك سنأخذ شاحنة لنقلها ٠

ـ الأجر هو الأجر ٠٠ تحدده المنقولات لاعددنا ٠

ـ على الأقل يأتى منكم من تتسع لهم العـربة ٠

قلتها وأنا أشير الى السيارة الواقفة فى الجانب الآخر من الطـريق ٠

وبنظرة ثاقبة اختار العجوز اثنين من الحمالين وعاد الآخرون الى أماكنهم ٠

قلت له :

ـ لم نتفق على الأجـر ٠

ـ نتفق هناك بعد أن نرى المنقولات ٠

ـ سريران ودولاب وثلاجة ومكيف ومنضدة طعـام ومقاعد و ٠٠٠

ـ هذا لا يفيـد ثم أضاف وهو يهم بعبور الشارع :

ـ الشـقة فى أى طـابق ؟

ـ الثـالث ٠

ـ هل يوجد مصـعد بالعمـارة ؟

ـ لا ٠٠

ركب ثلاثتهم فى المقعد الخلفى ، وجلس « مرسى » بجوارى ومضينا فى اتجاه « البيت العصرى » ، بين لحظة وأخرى كنت ألمحهم فى مرآة السيارة ، العجوز ، والشابين ، أحد الشابين يحمل فى وجهه أنفا يبدو أنه يمت بقرابة الى أنف العجوز ، وفى عينيهما نفس الزرقة ، كما أن صدرية الشاب تماثل فى قماشها صدرية الرجل الكبير الذى عاد يدخن ٠

قلت « لمرسى » مستخدما لهجتنا الاقليمية بصوت هامس :

ـ حتى بين هؤلاء ، لابد من وجود زعيم يبرم الاتفاقات والصفقات قال مرسى ضاحكا وبنفس الصوت الخافت :

ـ والآخرون يقومون وحدهم بالعمل ٠

ـ لا أظن أن الزعيم فى هذه المهنة يملك هذا النوع من الترف٠

ـ للذكاء سحر لا يقل عن سحر القوة ٠

ـ ليس مع هؤلاء الذين لا يستخدمون سوى عضلاتهم ؟٠

ـ الرجل يبدو شديد الذكاء والمراس ٠

ـ هذا من سوء حظ من سيتصدى لمساومته ٠

ـ « خالد » طبعا هو الذى سيقوم بهذه المهمة ٠٠ بهذا نعطى الخبز للخباز ٠

ـ كان زعيمنا فى الكلية يقود المظاهرات ، ويتصدى للبوليس، ويدافع عن أصحاب الحقوق و ٠٠

قال « مرسى » كمن تذكر شيئا ووجد فرصة مناسبة للتلميح اليه :

ـ يخيل الى أن شيئا ما قد تغير فى خالد و ٠٠

ولم يكمل حـديثه كأنما أراد أن يعـرف أولا أثر ملاحظتـه الأولى ٠

قلت لنفسى : « كنت أظن أن المدينـة وحـدها هى التى تثيـر دهشـــته » ٠

ثم قلت له مشـــجعا :

ـ شيئا واحدا فقط ؟

وكأنما دفعه تشجيعى الى المزيد من الحذر قال :

ـ لا أدرى ٠٠ مجرد احساس ؟

قلت مشـــجعا أكثـر :

ـ خالد فقط هو الذى تغير فيه شىء ما ؟

قال فى مرح وتلطف :

ـ على الأقل أنت لم تكن زعيما ، ولم تنذر نفسك لقضية ٠ وهذه المرة لم أرد لأننا كنا قد وصلنا الى المحل ٠

★★★

أمام محل البيت العصرى ، كان خالد فى انتظـــارنا ، رغم المكان الظليل الذى كان واقفا فيه ، فقد كان قميصه الأبيض يلتصق بجسده فى أكثـر من مكان ، وتقابلنا جميعـا بجـوار الأثاث قلت للعجـــوز :

ـ هذه هى المنقـولات ٠

تقدم يتفحصها ويتلمسها وكأنه سيشتريها ، دار حولها وتوقف قليلا أمام الثلاجة الـ ١٤ قدما ٠٠ والمكيف ٠٠ وعاد ليقول بلهجـة حيادية وكأنه يقرر أمرا طبيعيا ٠

ـ خمسة عشر دينـــارا ٠

تقدم منه « خالد » ليشعره بأنه سيد الموقف ، وقال بصـــوت هادىء وكأنه يحكى حكاية :

ـ منذ أسبوعين فقط نقل لى بعض الحمالين أثاثا كاملا لشقة كبيرة بخمسة دنانير فقط ٠٠ ثم أضاف :

ـ هل تظننا نجهل أسعار أى شىء هنا ؟

سأله العجـــوز ٠٠

ـ لأى طابق ؟

ـ للطـــابق الثـــالث أيضـــا ٠

(وكان الحمالان الشابان واقفين فى صمت خلف العجـــوز يتابعان الحوار فى انتظار النتيجة) ٠

قال العجوز مشيرا الى الثلاجة :

ـ هذه الثلاجة وحدها أنقلها بعشرة دنانير ، وأنت طبعا تهمك ســـــلامتها ٠

قال خالد بنبرة بين الجد والسخرية :

ـ تريد لكل واحد منكم الأجر الذى أخذه الحمالون الآخرون الذين نقلوا أثاثا كاملا فيه ثلاجة وغسالة ٠٠ و ٠٠

ـ يا سيدى اذا لم يعجبك اتفاقى يمكنك أن تستعين بهـــم فى نقـــل أثاثك ٠

قال خالد وقد أصبحت لهجته سخرية خالصة :

ـ للأسف لم يتركوا العنـــوان ٠

قال العجوز مؤكدا شعوره التام بسخرية خالد :

ـ أعرف جميع الحمالين فى المدينة ·· لو ذكرت لى اسم واحد منهم آتى لك به فى الحال ·

ـ للأسف لم يتركوا الاسم ولا العنوان ·

قال العجوز مؤكدا نديته لخالد حتى فى السخرية :

ـ لو كنت مكانك وعرفت مثل هؤلاء الناس الطيبين ما تركتهم هكذا دون معرفة ·

مع أن خالد هو الذى أدخل عنصر السخرية فى الحوار فقد قال بلهجة تنم عن غيظ مكبوت :

ـ هل تظننا جئنا بكم لنتسلى بالكلام معكم ؟

ـ نخرج من بيوتنا للعمل ، ولم يكن الكلام يوما عملنا ··

قالها العجوز بنبرة جنحت للاعتدال دون أن تخلو من التعريض ·

قال خالد محاولا الخروج من دائرة الثرثرة :

ـ ما ستفعلونه هو نقل الأثاث الى الشاحنة ثم نقله منها الى الشقة فهل ··

ـ قاطعه العجوز :

ـ لو أصاب أثاثك أى شىء من المسئول ؟

قال خالد بصبر نافد :

ـ ماذا سنأخذ منك لو أصابه أى شىء ؟

ـ لن تأخذ منى شيئا لأنى سأنقله لك فى سلام ·

قالها العجوز بهدوء وثقة ·

ـ يعنى تصر على هذا المبـلغ ؟

ـ قلت كلمتى ٠٠ لماذا لا تقول كلمتك ؟

ـ لأنك جئتم الى هنا سأعطيكم ستة دنانير ٠

قال العجـــوز مشيرا الى مرسى :

ـ من أجل هذا الرجل الطيب الذى لم يتكلم كلمة واحـــدة سنأخذ منكم ثلاثة عشر دينارا ٠

وخيم صمت ثقيل ، وبدا التململ على «مرسى» وعلى الحمالين الشابين فقلت محاولا تقريب الهوة بينهما ملاحظا أن الجـو الحـار لا يعمل فى صالحنا :

ـ اسمع يا رجل سنعطيك سبعة دنانير وهذا آخر كلام ٠
صرخ خـــالد :

ـ اسكت أنت ٠٠ هكذا أنت تطمعهم فينا ٠

قال العجوز فى هدوء مخاطبا خالد ومهددا ٠

ـ لماذا تغضب ٠٠ أعدنا الى المكان الذى جئنا منه ٠

عاد خالد يمسك بزمام الموقف :

قال لى بلهجة قاطعة :

ـ اعطنى مفتاح الســـيارة ثم قال لهم :

ـ تفضلوا ، سأعيدكم الى نفس المكان ٠

ـ قال « مرسى » الذى كاد يسقط من الاعيـــاء ، وهـو يرى السـيارة تبتعد بهم وبخـالد :

ـ لولا أنكم تفعلون هذا من أجلى ، ولولا حرصى على عـدم احراجكم لرجوتكم أن توافقوا على ما قاله العجـوز ·

ثم أضاف وهو عاجز هذه المرة عن اخفاء دهشته :

ـ ألم أقل لك أن شيئا ما تغير فى خالد ؟

مع أن سؤاله المجدد لمس أوتارا حسـاسة فى نفسى الا أننى قاومت رغبتى فى تجريح خالد ، خاصة أمام « مرسى » الذى لايزال يرى ثلاثتنا فى اطار الماضى ، شعرت أنه من الصعب أن أوضـح « لمرسى » فى لحظات معنى التغير الذى يحـدث للناس هنا فى سنين والذى ربما يحدث له فى المستقبل ، وأن خالد لا يصطنع أسـلوبا فى المساومة لمجرد الرغبة فى توفير نقود « مرسى » ؟

قلت له :

ـ هون عليك · انها احدى مناورات خالد ، سـوف يعـود بهم بعد اكمال المفاوضات فى الطـريق ·

لم يرد مرسى على كلماتى ، وبدا كأنه شرد بذهنه فيمـا جرى أمـامه ·

قلت مصرا على اخراجه من شروده :

ـ أنت لم تعمل بعد بفلس واحد ، فهل تظننا نتركك تبـدد نقودنا ؟ أم أن الأجور العالية هنا تغريك ببعزقة النقود ؟

ظل مرسى شاردا ، وبدوت كأننى أكلم نفسى ·

بدت المفاجأة واضحة على وجه « مرسى » حين عاد « خالد » وحده هذه المرة ·

كان وجهه مغبرا وشاحبا وان حاول أن يبدو غير مبال وهو يقول :

ـ العجوز الملعون ·· لم يتزحزح عن المبلغ الذى طلبه ·

صرخ مرسى ·

ـ ولماذا لم تأت به ؟ هل سنحمل هذا الأثاث على ظهورنا ·· الشمس تكاد تغرب

قال خالد بثقة وكأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته ·

ـ ولذلك سوف يعودون بأنفسهم ·· لن يتركوا هذه الصفقة تفلت منهم فى آخر النهار ·

قال مرسى وكأنما سئم وصاية خالد :

لو كانوا يريدون ·· لعادوا معك أو ساوموا على مبلغ أقل ··

قال « خالد » مستردا روح الوصى والزعيم ، مغتصبا ابتسامة باهتة على شفتيه :

ـ الأولاد الذين معه · ·يلحون عليه الآن كما تفعل أنت معنا ·

ولم يضحك مرسى لما قاله خالد كنكتة ·

قلت محاولا تخفيف الموقف والبحث عن مخرج :

ـ واذا لم يعودوا ؟

قال خالد :

ـ تذهب أنت ومرسى لهم مرة أخرى ، وأنا واثق أنهم سيقبلون بثمانية دنانير أو عشرة على الأكثر ٠

قال مرسى وكأنما عز عليه أن يتعرض خالد للمهانة بسببه ٠

ـ ألا يوجد غيرهم ؟

ـ لا ٠٠

ـ وهؤلاء الذين تحدثت عنهم ٠

ـ هل صدقت هذه القصة ؟

★★★

حدث كل شيء كما توقعه خالد ، فحين ذهبنا اليهم أنا ومرسى كانوا فى انتظارنا ٠

قال العجوز (الذى بدا مبتسما لأول مرة) قال لمرسى :

ـ من أجلك أنت سأنقل الأثاث ولو بدون نقود ٠

قال مرسى مبادرا :

ـ تنقله بعشرة دنانير فقط ٠

ولم يعد هناك معنى لتدخلى ٠

قال العجوز :

ـ هو ما قلت ٠٠ وعدنا بهم ٠

★★★

كانت الشمس قد غربت تماما حين وصلنا الى المنزل الذى توجد به شقة « مرسى » فى شارع النزهة ٠٠ توقفت السيارة وبعدها

الشاحنة التى تحمل الأثاث ، وحدث هنـا ما حـــدث أما البيت العصرى ، العجوز يتحرك بسرعة ، ويصدر الأوامر ، ويشارك فى كل صغيرة وكبيرة ٠

هذه المرة لسلامة انزال الأثاث ، كما كانت هنـاك لسـلامة رفعه ووضعه فى الشاحنة ٠

طوال الطريق لم نتبادل ثلاثتنا الحديث ، مع أننا كنـا وحدنا فى السيارة ، لعله الارهاق فالجو لا يزال حـارا رغـم غـروب الشـــمس ٠

لعله شعور بالهزيمة والاحباط لا نعرف له معنى ٠

وحتى حين وقفنا أمام المبنى نرقب الحمالين وهم يعملون ظللنا زاهدين فى الحديث ٠

العجوز يأمر الحمال الذى يشبهه ، بأن يقف وراء البـــاب الخلفى لصندوق الشـــاحنة ليحمل الثلاجة على ظهره فى لحظـة انزالها من على الشاحنة ، ويقفز هو والحمال الآخـر الى ظهـر الشاحنة ليقوما بزحزحة الثلاجة وانزالها برفق على ظهر الحمـال الواقف على الأرض ٠

حين بدأ الحمال يتحرك بها فى اتجاه سلم البناية كان العجوز يسبقه ليضىء له أنوار السلم ثم يصدر له أوامره الارشادية :

ـ انحن قليـــلا ٠

ـ خـــذ يمينك ٠

ـ توسط الســـلم ٠

ـ لا تنزل يدك عن مؤخرة الثـــلاجة ٠

كنا نتابع المشهد فى صمت مشوب بقلق مجهول المصدر لعلها لحظة الغروب فى يوم شديد الحرارة ، لا نكاد نسمع سوى خفق أقدامنا على السلم ، وصوت العجوز الصاخب وحده هو الذى كان يخفف من قلقنا الغامض ٠

كان خالد قد بقى خارج المبنى بجوار بقية الأثاث فى انتظار أن يعود الحمالون لنقله ٠

وفجأة بدت الثلاجة التى كنا نرقبها وهى ترتفع خطوة بعد خطوة فى ثبات ، بدأت تهتز ، وتوشك مقدمتها أن تصطدم بسقف السلم ، حدث ذلك قبل أن نسمع صرخة مكتومة تنبعث من تحتها ، وقبل أن نبصر بقعا من الدم يتتابع نزولها على درج السلم ٠

يبدو أن العجوز كان أسبقنا الى ادراك ما حدث فحين بدأنا بحركة لا شعورية نمد أيدينا كأنما لنمنع سقوط الثلاجة ، كان هو قد أصبح تحتها تماما ملتصقا بالحمال الذى ندت عنه الصرخة ٠

وكان هو بدوره يصرخ فيه :

ـ انحن أكثر منى ، ودعها تنزل على ظهرى ٠

ثم طلب منا أن نعد لها لتستقر على ظهره ٠

وحين أصبح مسيطرا عليها تماما ، عاد يصعد بها فى ثبات وتوازن ٠

حدث الأمر كله فى لحظات خاطفة ، كنا أنا ومرسى نبدو خلالها حائرين مذهولين ، حتى ونحن نلبى أوامر العجوز ، وحتى ونحن نرى خالد الذى جاءت به الصرخة يصعد السلم قفزا ، ليستوعب الموقف فى لحظة ويطلب منا أن نبقى مع الحمالين حتى

يتم نقل الأثاث ، وانه هو سيأخذ الحمال المصاب فى السيارة الى مستشفى « دار الشفاء » القريب من البناية ٠

★★★

حين أخبرت العجوز بأن زميلنا خالد هو الذى أخذ المصاب الى المستشفى القريب ، هز رأسه ونطق بضع كلمات بلغته الأصلية ، لم أفهم لها معنى ، ثم عاد يتحرك بسرعة لينتهى من عمله مع الحمال الآخر ٠

تحركنا أنا ومرسى بلا شعور ننقل معهم المقاعد والمناضد الخفيفة ، كأننا نريد أن نتجنب الحديث حول ما حدث ٠

لمحت قطعة قماش قديمة على السلم وجدتنى أحملها وأمسح بها قطرات الدم الباقية على الدرج حتى لا نراها فى صعودنا ونزولنا كانت تسيطر على مشاعر غريبة أما مرسى فقد بدا مستسلما لشعور بالكآبة وربما بالتشاؤم عجزت ملامحه عن اخفائه ٠

كنا نوشك أن نفرغ من نقل الأثاث حين عاد خالد وحده توشك نظراته أن تسبقه الينا ٠

قال للعجوز :

ـ جئت لأطمئنك ٠٠ كاظم بخير ٠٠ الذزيف سطحى من الأنف ـ سآخذك اليه الآن ٠٠ لتراه بنفسك ٠

خيل الى وأنا أستمع الى خالد ، أننى أرى لمحة من خالد القديم كان يتكلم بثقة وبطمأنينة انتقلت الى العجوز الذى لم يكد يسمع كلمات خالد حتى جلس على آخر كرسى كان لا يزال أمام المبنى وطلب منا كوب ماء ٠

رأيت خالدا يجرى هنا وهناك قبل أن يلمح بقالة على مقربة من المبنى ، فدخلها ليعود ببضع علب من العصير البارد ٠

فجأة قال العجوز بعد أن بل ريقه وهو يهم بالقيام :

ـ لو كان كاظم بخير لم لم يعـد معك ؟

ـ تركته يستريح قليلا تحت ملاحظة الطبيب ثم تابع بنبرة عاتبة ورقيقة ٠

ـ الا تصـــدقنى ؟

عاود العجوز الجلوس ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مبللة بالعصير وهو يقول لخـالد :

ـ أصـــدقك وأثق بك ٠

لأول مرة أشرق وجه خالد بلمحـــة من الرضى وراح يشرب زجاجته وهو يقف بجوار العجوز ويربت بيده على كتفه ٠

قلت لمرسى الذى كان لا يزال غارقا فى الكآبة :

ـ ألا تحمد الله لأن الاصابة سطحية ؟

ـ طبعـــا ٠٠

ـ لماذا لا تفكها اذن ؟

تأملنى طويلا ثم قال وكأنه لم يعد يرضى بطريقتى فى الـكلام ـ بالنسبة لما يحزننى فالمسألة لا تختلف ٠

★★★

حين فرغ العجوز من شرابه هب واقفا ٠

قال خالد للعجـوز :

ـ انتظر سوف أوصلك فى سيارتى ٠

قال العجـــوز :

ـ شـكرا ·· سأركب مع سائق الشـــاحنة فالمستشفى فى طريقنا ··

قال خالد بتصميم :

ـ لا ·· سأذهب معك ، وأوصلك أنت وكاظم الى أى مكان بعـد المستشفى ·

قلت لخالد هامسا ، وقد ظننته يذهب معـه ليدفع له حسابه:

ـ أعطينا الرجـل حسـابه ·

قال لى :

ـ بينى وبينه حساب خاص ، أريد تسويته وسأعود بعـد أن أوصـــله ·

ثم توجه خالد الى السيارة وركب العجوز بجـواره ، وفى المقعد الخلفى ركب الحمال الثانى ، ومن مكانى وقبل أن تغيب بهما السيارة كنت أرى رأسيهما من الخلف يتقاربان فى مودة ·

★★★

قال مرسى ونحن نصعد السلم الى شقته الجديدة :

ـ كأننى أرى خالد القديم ·· لكنى لم أفهم شيئا مما رأيته قبـل ذلك ؟

مع اننى دهشت لتوارد المشاعر معه الا أننى وجدت نفسى عازفا عن تصديق أو تكذيب مشاعره أو مشاعرى غرقت فى الصمت الذى كان غارقا فيه ، وربما فى نفس الكآبة ·· كيف أشرح له ما أبدو غير قادر على فهمه ؟ ولعلى لم أجد معنى للكلام ··

أكنت مشفقا عليه أم على نفسى ؟

لماذا أصادر حريته فى الملاحظة والتفكير ؟.. لماذا أقدم له أحكاما على الناس والأشياء ؟ لماذا لا أتركه يعيش تجربته ؟

أكان قرارى بالتزام الصمت حكمة أم مجرد تبرير للهروب ؟

لا أدرى ..

المهم أن مرسى لم يعاود السؤال .

واحـــد منهم

« أنت يا أستاذ خليل نوع آخر من الزملاء ، ولهذا السبب وحده أتحدث اليك بما لا أتحدث به الى أى زميل آخر ·

ان لى نظرة لا تخطىء للانسان الذى ألقاه ، ومنـــذ شرفت المدرسة وأنا أدرك أنك مختلف عن بقية المدرسين الذين يجيئون من كل بلاد الله فى كل عام ، لا تظن أنى أقول مثل هذه « الأخبار » لكل أحد ، وفى هذا البلد يجب أن تكون حذرا فلا أحد هنا يعرف الآخر معرفة جيدة ولا أحد يريد ذلك ، أول شىء لفت نظرى اليك هو ميلك الى الصمت ، الناس هنا جميعا يحبون الكلام ، ومع أنهم مدرسون من المفروض أن يكونوا قد زهدوا فيه الا أنهم جميعا ثرثارون بشكل أو بآخر ، الكلام فى هذا البلد كالبضائع ، كثيرة · ومن كل نوع ، وبعضه مغشوش وأحيانا تدفع فيه ثمنا غاليا ما لم تكن حريصا ، ولكن دعنى أقـــول لك كلمة واحدة بلا ثمن رغم أنهـــا تساوى الكثير : أنت رجل طيب ، وبالتأكيد ان أمك قد دعت لك

كثيرا ، واستجاب الله دعاءها كله ، ومن حسن حظك أنك قد جئت لهذه المدرسة ، ومن حسن حظى أننى التقيت بك ٠

لماذا تنظر فى ساعة يدك ؟ هل انتهت حصصك ؟ أم أن وراءك موعدا ؟ (فى تلك اللحظة دق جرس البـــدء للحصـــة الأخيرة) ٠

خطف الأستاذ « بهيج » كراسة تحضيره من فوق مكتبه قال وهو يهرول ليلحق بحصته : انتظرني حتى نهـــاية الحصـــة ، وسأوصلك الى أى مكان تريد ٠

ومضى دون أن تكون أمامى أية فرصة حتى لكلمة شكر ٠

★★★

لم يكن أمامى سوى أن أنتظر فحر الكويت يصـــيبنى بنـــوع غريب من الشعور بالضياع واليأس ، وكثيرا ما سألت نفسى : متى أتعود هذا الحر أو متى ينقضى ؟ ودائما يبرز الأستاذ « بهيج » ليضع حدا لهذا السؤال البائس ٠

وفى الواقع أن ظهور الأســـتاذ « بهيج » فى مثل هـــذه اللحظات ، واهتمامه الذى يفوق اهتمام أى زميل آخر ، جعلنى لا أفكر كثيرا فى دوافعه لهذا الاهتمام ، ولا حتى فى طريقته فى تقديمه ، كنت أظهر ميلا واضحا ـ فى الحدود التى ترضى شعوره بالفراسة ـ لتصديق أى كلام يقوله عن حكاية أننى اختلف عن بقية الزملاء ، ودعوات أمى ، وغير ذلك ولم لا أفعل ؟ لقد كانوا بدورهم يختلفون كثيرا عنه ، على الأقل فى أن اهتمامهم بشأنى قد توقف بعد تقديم فنجان واحد من القهوة ، وبعض الأسئلة عن البلد ، وسنة التخرج ، وزملاء الدفعة وعن استعدادهم لتقديم أية

خدمة أطلبها ، وشـــعورهم الكامل بالطمأنينة ما دمت لم أطلب شـيئا ..

لست أنكر أن جزءا من عقلى ، جزءا لعينا من عقلى ، كان يتمنى لو أن هذا الاهتمام بى صدر عن شخص آخر مثـل الأستاذ « محجوب » انه عاقل جدا ، يتكلم بحساب كلمات قليلة تشعر أنه يحوم بها دائما حول الحقيقة فى أية مسألة يثرثر حولهـا الزملاء مفضلا دائما أن يترك لك مهمة اكتشافها بنفسك ..

وكان يبطن سخريته الدائمة من الأسـتاذ « بهيج » بغلالة رقيقة ناعمة تجعل من هذه السخرية مادة للفكاهة لا للتجريح ..

ولكن اهتمامه بشأنى كان مثل كلامه قليلا جدا ، ولا ينفع بشىء فى حـر الكويت ..

فى تلك اللحظة دخل زميل آخر هو الأستاذ « مبروك » ، زفر زفرة طويلة وهو يقذف بأوراقه فى درج مكتبه ، قال وهو يهـم بالخروج بعد أن مسح قطرات من العرق من على زجاج نظارته وجبهته بورقة « كلينكس » .

بعد اذنك .. سوف أذهب الآن لالتقاط زوجتى وأولادى من مدارسهم المتباعدة .. رحلة عذاب كل يوم بسبب زحمة الخـروج من الدوام .. فى هذا البلد لابد أن تصبر كثيرا أنت تأخذ الكثير ، وتدفع الكثير كذلك ..

قال هذه الكلمات فى صورة خبر ونصيحة معا ، وكانت تلك طريقة البعض فى تقديم اعتذار مهذب لعدم قدرته على توصيلى معه .. الأستاذ محجوب هو الآخر له طريقته فى تقـديم نصـائحه بالصبر ، فقد لاحظ : أن القرآن الكريم قد تحدث طويلا وكثيرا عن جزاء الصابرين وتذكـرت أن أمى قد نصـحتنى به كثيرا فى

طفولتى ، ولكن أحدا أبدا لم يدلنى على طريقة محددة لتنفيذ هذه النصيحة بنجاح ..

* * *

ـ تفضل يا مولانا ، قالها الأستاذ « بهيج » الذى كان يدللنى أحيانا بهذا اللقب ، وهو يضع صفا من الكراسات على مكتبه .

ـ أنا جاهز ، وتحت أمرك ، تريد أن تمر بالسوق ؟ أو تذهب الى أى مكان آخر ؟ أم تفضل العودة الى البيت ؟

ـ البيت ..

أشك كثيرا أنه سمع ردى .. فقد اندفع الى خارج الحجرة وأنا أهرول خلفه .. توقف فجأة لدرجة أننى كنت قد تجاوزته حين توقفت لانتظاره ، انهمك فى الحديث مع زميل لا أعرف اسمه ، حين ينهمك الأستاذ « بهيج » فى الحديث لا يفطن لشىء آخر . وبالأخص الى الفارق المخيف بين درجة الحرارة داخل وخارج الحجرات ، وفى هذه المرة كان لابد أيضا أن أحتمل حتى يفرغ من حديثه فانتظار الأستاذ « بهيج الأنصارى » أرحم ألف مرة من انتظار الأتوبيس الذى لا تعرف له موعدا ، أو التاكسى الذى يأتى أو يقف بمزاجه أو لا يأتى أبدا ..

« آسف تأخرت عليك ، ماذا أفعل يا أخى ، لا أحب أن أتخلف عن خدمة أحد ، وحكى لى موجزا مفيدا عن تاريخ حياة الزميل الذى كان يتحدث اليه ختمه بتلخيص للخدمة التى قصده فيها .. ثم قال وهو يدور بعينيه بحثا عن المكان الذى ترك فيه سيارته » من أصعب الأمور فى الكويت أن تجد مكانا لسيارتك

« لكل شيء مشاكله ، حتى السيارة التى نقتنيهـــا للراحة تصبح مشكلة حين يصيبها العطل ، وما لم تكن مفتح العينين فســـوف يسرقك الميكانيكى والكهربائى والحداد والمنجد وكلهم فقط لاصلاح سيارتك آخر شيء يفكر الناس هنا فى صيانته هو صحتهم ، وهم لا يكتشفون هذا الا بعد فوات الوقت ، العام الأول ..

ـ « تفضل ها هى السيارة .. سأل نفسه وأجاب . » ماذا كنت أقول ؟ : العام الأول هـــو أصعب أعـــوام الكويت ثم تقـــل الصعوبة فى العام الثانى ، وعادة ما تحلو الكويت أكثر فأكثر كلما مرت الأعوام وفى العام الذى تقرر فيه أن تعود الى بلدك تجد نفسك عاجزا عن تنفيذ القرار ..

قال وهو يدير محرك سيارته :

ـ « اسألنى عن كل شيء هنا فأنا أقدم مدرس فى المدرسة ، قلت لى انك تفضـــل الذهـــاب الى البيت ، وقبـــل أن أهـــز رأسى بالايجاب تابع قائلا : لو أخذت رأيى فى مسألة السكن ما وافقتك أبدا على أن تسكن فى أحد الأحياء الكويتية لألف سبب أهمها أن من حق صاحب البيت فى أى وقت أن يطلب منك اخلاء الشقة فلا يكون لك حق الاعتراض على ذلك ، (ولم تكن مشكلة السكن الشهيرة قد ظهرت فى ذلك الوقت ، ولم أتخيل أنه يمكن أن يحدث بينى وبين صاحب البيت ما يدفعـــه الى أن يطلب منى اخـــلاء الشـــقة) .

وحين حاولت أن أوضح للاســـتاذ « بهيج الأنصـــارى » « ما يدور فى رأسى سمعته يقـــول وهو ينبه ســـيارة أخرى بالضرب على الهـــورن » ..

« الحمد لله أنك لم تشتر بعد الكثير من الأثاث وبالنسبة لهذا الموضوع فسوف أضع خبرتى كلها تحت أمرك سأذهب معك غدا الى

سوق الحراج تذكر غدا ، وهناك سوف نجد فرصا هائلة لشراء أشياء ممتازة ورخيصة ·· لن أتركك أبدا تتورط فى خطأ آخر مثل موضوع السكن ، (كنت أود أن أقول له : أننى سمعت بمسألة سوق الحراج هذه ، ولكنى لا أميل لشراء أشياء قديمة قد تربكنى بحاجتها الى الاصلاح وأنا بدون سيارة ، أن هناك أشياء أفضل أن تشترك زوجتى فى اختيارها ولهذا لابد من الانتظار حتى تلحق بى بعد اسبوعين ، ولكن هذه الرغبة لم تتجاوز أبدا نطاق التفكير فيها ولم يدفعنى أبدا للتعبير عنها) ·

« أنت كثير السرحان يا أستاذ خليل ، يجب أن تنتبه الى كل كلمة أقولها لك ، فليس من السهل هنا أن تجد انسانا يتطوع بأن يقول لك الحقيقة ·· الناس هنا ·· أستغفر الله يا أخى أنا لا أحب أن أتقول على أحد بسوء ، ولكنى سأرتكب ذنبا أكبر حين لم أحذرك منهم ، وأنت رجل طيب وسليم النية ، وقد خلقنى الله ـ كما ترى ـ أحب خدمة الناس الطيبين ، « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، حين قدموا الى الكويت ، كل الزملاء الذين معنا فى الحجرة ، قمت بالواجب كل منهم ، أقول هذا لا منا ولا أذى ، ولكنها الحقيقة ـ علم الله ـ لا أزيد فيها ولا أنقص ، الأستاذ محجوب اشتريت له أثاث منزله كله من « الحراج » ، المكيفات والثلاجة ، والكراسى (وأقرضته كل ما احتاجه فى الشهور الأولى من نقود ، والآن لو كسر طبق فى مطبخه فالعبد لله هو المسئول ، وبدلا من أن يوبخ زوجته يقول لى : شورتك العظيمة ، واختيارك الهائل ··

ماذا أقول وماذا أترك ؟ الأستاذ « مبروك » أوصلته عامين بسيارتى ، قبل أن تصبح له سيارة ولزوجته أخرى ، كدت أقول له : ان الأستاذ مبروك لا يملك سوى سيارة واحدة يذهب بها لاحضار زوجته ، ولكنى حمدت الله على أننى لم أفعل فقد سبقنى الأستاذ بهيج لتوضيح الأمور :

« وحين أرادت زوجته بيع سيارتها : وأردت شراءها لزميل جديد مثلك ، لم يوافق الأستاذ مبروك على الثمن الذى قدرته للسيارة وقال بكل تبجح : نعرضها فى السوق ومستعد لأن أعطيها لصاحبك بثمن يقل عشرين دينارا عن سعر السوق من أجل خاطرك » ٠

فى هذه اللحظة انتابنى حماس شديد لأن أوضح للأستاذ بهيج أن عرض الأستاذ مبروك لا يخلو من المعقولية ، وأن أسأله لماذا تتعب نفسك بالتدخل فى هذه الأمور ؟ ٠

ولكن حماسى سرعان ما تبخر فجأة وأنا أستمع الى الأستاذ بهيج يختم حديثه قائلا :

« ويسبب الطمع فى الفلوس ظل الأستاذ مبروك وزوجته مترددين فى بيع السيارة حتى تحطمت منها فى حادث لأنها لا تجيد السواقة ، نجت بمعجزة من الحادث لتبيع السيارة بعد ذلك بتراب الفلوس ، حقا ٠٠ وان ربك لبالمرصاد » صدق الله العظيم ٠

ـ تفضل يا مولانا ٠٠ قالها الأستاذ بهيج وهو يفتح باب السيارة كنا قد وصلنا الى البيت ، بيتى ، وكنت فى دهشة شديدة من مهارته فى القيادة ، رغم أنه لا يكف عن الحديث ، وفكرت لجزء من الثانية أن أطلب منه أن يكف عن توصيلى الى البيت ، ولكن لفحة الهواء الساخن التى صفعت وجهى وأنا أغادر السيارة جعلتنى أقول له :

ـ تفضل معى لنتغدى معا على طريقة العزاب ٠

ـ أنت تخجلنى بهذه الدعوة يا أستاذ خليل ، فهذا واجب علينا ، لكن اذا كنت مصرا فلى شرط واحد لقبول الدعوة ٠

ـ موافق على كل شروطك !

– أن تتركنى أقوم وحدى بتجهيز الطعام ·· هواية قديمة من أيام التلمذة ·· يا لها من ايام ·· تذكرنى بها فجاة يا أستاذ خليل ·· ألم أقل لك انك نوع آخر من الزملاء ؟

★★★

كنت أفكر فى الوقت الذى سيحتاجه الأستاذ بهيج قبل أن ينوج مجموعة اكتشافاته باكتشاف أننى لا أزيد عن أن أكون واحدا منهم ·· وغدا آخر مثل بقية الزملاء الأوغاد ·

وفكرت ان مثل هذا الوقت ينبغى أن يطول كثيرا لأسباب كثيرة ، وأن مثل الأستاذ « بهيج الأنصارى » بنشاطه وحيويته وأيضا بذكائه ·· أقصد بنوع ذكائه ، قد يحبط كل خططى فى اطالة هذا الوقت ، وأنه اذا حدث أن نجحت حقا فى اطالة هذا الوقت فلن يكون لهذا النجاح سوى معنى واحد هو أن الأستاذ بهيج لن يكون مخطئا هذه المرة حين يكتشف مسألة نذالتى ، ولو جاء ذلك الاكتشاف متأخرا ·· قليلا ·

ولكن ما كنت أتمناه بحق ، وهو أمر يبدو لى عسير التحقق هو أن يلتمس لى الأستاذ بهيج بعض العذر فى هذه النذالة بحر الكويت ، وأن يصدق أننى كنت حقا أشعر نحوه بحب كبير وتعاطف لا حد له ، لأنه كان يحترق فى كل فصول العام بحر آخر لا يقل لعنة عن حر الكويت فى أيام الصيف ··

كلمات متقاطعة

(١)

ـ فى أول لقاء لى معه ، أدركت على نحو ما أنه لن يكون الأخير سألنى : ما دوافعك للعمل عندنا فى مشروع « تعمير الصحارى » ؟ ٠

قلت له بلهجة تكاد أن تكون طبيعية :

ـ الأجور التى تدفعونها ٠

قال وهو ينظر فى طلبى الموضوع أمامه ، وبه المؤهل والسن ونوع الخبرة ومدتها ، ودون أن يبدو على وجهه أى شعور بالدهشة لما كنت أظنه صراحتى :

ـ ما العمل الذى يمكن أن تقوم به هنا ؟

ـ أى عمل ٠٠ !

قلتها بلهجة تكاد أن تكون طبيعية

لكنه قال (مؤكدا مـرة أخـــرى أنه ليس من النوع القابل للاستفزاز) ٠

ـ مبدئيا يمكن أن تعمل فى « قسم العلاقات العـــامة » ، لتأخذ فكرة عن العمل هنا ، ونأخذ فكرة عنك ٠٠ ننظـر بعد ذلك فى كل شىء ٠٠ ثم أضاف موضحا :

ـ طبعا سيكون عملك فى العلاقات العامة بأجر مؤقت ٠

أدركت على نحـو ما أننى لم أكسب أول جولة على النحـو الذى كنت أود ، فما سمعته عنه هـو الذى دفعنى الى أن أتجنب التورط فى الأجوبة التقليدية ، كما أن رغبتى فى استفزازه لكى أجره الى مناقشة من أى نوع لأستعرض أمامه ما كنت أظـن مواهبى قد باءت بالفشل ٠٠

ورغم ذلك كله فقد امتلأت احساسا لسبب لا أدريه بأن لقائى هذا معه لن يكون آخر لقاء ٠

(٢)

ـ فى الفترة التى عملت فيها « بالعلاقات العامة » سـمعت عنه الكثير ، لكن ما سمعته لم يكشف لى النقاب عنه بقدر ما كان يكشفه عن أولئك الذين تحدثوا الى عنه ، أما هو فقد كان كحـزمة قوية من الضوء ، تكشف كل من يقترب منها لكنها هى تظـل غامضة المصدر والمدى على أولئك الذين يقعون فى طريقها ، ورغم وضوحها الشديد ، ومع اختلاف الناس فى الحكم عليـــه اختلافا يعكس ما بينهم من فروق ، فقد كانوا يتفقون حين يكون الحـــديث عن كفاءته ونزاهته ، وأنهما وحدهما اللذان يحتفظان له بمركزه كمدير للمشروع يثق به كل أعضاء مجلس الادارة فضلا عن رئيسها ٠٠

وحين طلبنى لمقابلته فى المرة الثانية ، قلت لنفسى :

ـ حان الوقت لأعرف ماذا قالوا له عنى ؟

كانت ملامح وجهه كما رأيتها أول مرة ·· هادئة وصافية كأنها ليست ملامح الرجل الذى يعمل طول الوقت، عبثا تحاول أن تستشف منها مالا تريد أن تبوح به ·

سألنى وفى أعماق عينيه ظل ابتسامة :

ـ أريد أن تعمل فى مكتبى ·· ما رأيك ؟

فى هذه المرة بذلت مجهودا لكى أبدو طبيعيا وأنا أقول له :

ـ انه لشرف عظيم لى يا سيدى ·

وقبل أن أترك نفسى على سجيتها ، دفع الى بجملة من التقارير كانت معدة على مكتبه قائلا :

ـ لن أكلفك بأى عمل قبل أن تفرغ من قراءة هذه التقارير التى يمكن أن تعرف منها الكثير عن طبيعة مشروعنا ·· الخطوات التى أنجزت ، والتحديات التى لا تزال ·· والعمل الذى تقوم به فى مكتبى ··

وحين استقرت التقارير فى يدى ، كانت يده تمتد الى ملف أمامه ، راح يلقى بنظرات سريعة على ما فيه من أوراق ، ويكتب عليها تأشيراته ، استغرق فى عمله لدرجة أنه لم يشعر بى وأنا خارج من مكتبه ، متأكدا من صدق ما سمعته عن طريقته فى العمل ·

(٣)

– بعد أيام قليلة فرغت خلالها من دراسة التقارير كنت أسأل نفسى هذا السؤال :

– هل أطلب لقاءه ، وأخبره بأننى فرغت من التقارير ولدى ما أقوله بشأنها ؟ أم أنتظر حتى يدعونى هو الى لقائه ؟ وفى النهاية رجحت أن أنتظر ، فلم أشأ أن أبدو كمن يريد أن يثبت قدرته وسرعته فى الانجاز ٠

وحين طال انتظارى ، رحت أنفذ اللقاء المنتظر – فى خيالى – وأدير بينه وبينى هذا الحوار :

– هل أنت مقتنع بجدوى هذا المشروع الذى جئت لتعمل فيه ؟

قلت لنفسى : لو فعلها وواجهنى بهذا السؤال فسيكون هدفه الأول أن يعرف مدى غرورى ؟ وسوف أكون أبله حقا لو رحت أردد أمامه ما قرأته عن مغزى المشروع بوصفه تجربة علمية رائدة ، لا تقاس جدواها فى ضوء الحاضر بل فى ضوء المستقبل ٠٠ فبعد العثور على المياه الجوفية فى قلب الصحراء ، لم تعد المشكلة هى استخراج الماء وضخه بطريقة اقتصادية ، بل المشكلة الرئيسية هى فى الطريقة التى يمكن أن يضعوا بها حدا للعواصف الترابية التى تهب من قلب الصحراء الكبرى فى بعض المواسم فتردم الزرع الأخضر النامى ، وتدفن جهود الرجال ، وأحلام العلماء ، وأموال الشركات المساهمة تحت التراب ٠

وفى بساطة كان خبراء المشروع يؤكدون :

– ليست هناك سوى طريقة واحدة ٠ أن تصبح هذه الصحراء

كلها خضراء ، آنذاك لن تكون هناك رمال ناعمة تنقلها العواصف حين تهب فى طريقها ..

وهكذا بدلا من أن تقضى الصحراء على الزرع الأخضر بعواصفها الرملية ، يقضى الزرع الأخضر على هذه العواصف حين يغطى وجه الصحراء ؟

أليس هذا هو شكل الصراع الأبدى بين الانسان والطبيعة ؟ وهو صراع تحسمه فى النهاية ارادة الانسان وهكذا كان خبراء التكنولوجيا يؤكدون أنهم لا يزالون حتى فى هذا العصر فى حاجة الى روح الفروسية ؟

أيمكن حقا أن يستدرجنى المدير الى مناقشة مثل هذه الأمور معه ؟

ومع ذلك فقد كنت أقول لنفسى لو فعلها فسوف أنتهز الفرصة لأوجه اليه سؤالا قد لا يبدو شديد الصلة بجدوى المشروع وربما لا أحد هنا يجد وقتا للتفكير فيه .

لو فعلها وفتح لى معه باب الحديث فسوف أسأله :

ـ هل فكرتم فى تأثير مشروعكم على البلاد التى تحيط بالصحراء ؟ ان بها أراض كثيرة خصبة بدأ يزحف عليها الخراب نتيجة للنزوح الدائم للأيدى العاملة الى أرض هذا المشروع ؟

كما أن هناك فى جنوب الصحراء أراض كثيرة قابلة لزراعة ويمكن أن تعطى الكثير جدا فلم لم تفكر شركتكم فى استصلاحها ؟

حين دعانى الى مكتبه ، لم أكن قد انتهيت الى قرار واضح ، تركت كل شىء للصدفة ، كان يتحدث فى التليفون ، وخلال الحديث يقول لزواره كلمة أو كلمتين ، (ربما كانت لها علاقة بالموضوع) ويجرى بعينيه على ورقة أمامه ..

(فيما بعد عرفت أن تلك طريقته حتى لا يأخذ زواره راحتهم فى مكتبه) ٠

حين وضع سماعة التليفون التفت الى قائلا وكأنه يكمل حديثا سابقا معى وبهدوء شديد كأننا وحدنا فى الحجرة ٠

ـ ضمن ما قرأت كان هناك تقرير خاص بزراعة « المانجو » ٠

ـ نعـــم ٠

ـ سيأتى غدا مستر « هارفى » خبير « منظمة التغذية العالمية » فى زراعة المانجو سوف تقابله فى المطار ، المهم أن تعد اليـــوم مذكرة من خلال ما قرأت عن تجربتنا فى زراعة المانجو لعرضـــها على الخبير قبل اجتماعه مع اللجنة المختصة ثم استطرد وهو يمد لى يده بورقة بها برنامج الخبير ٠

ـ لابد أن تعكس المذكرة جوهر تجربتنـــا فى هـــذا الموضوع فنحن لن نستفيد كثيرا من أفكار الخبير الدولى الا اذا عرف أن لنا أفكارا خاصة عن الموضوع ، وهذا ما يجب أن يكون واضحا فى المذكرة ، ربما ينسف الخبير كل أفكارنا عن الموضوع نسفا ، لكن سيكون معنى ذلك أنه بدأ يفكر معنا بحق ٠٠

وقبل أن أعلق بكلمة كان جرس التليفون يدق فى مكتبه من جديد ، وكان هذه المرة يتحدث أيضا وكأنه وحده فى مكتبه بلهجة صافية رائقة وحاسمة فى نفس الوقت فلم يشعر بى وأنا أغادر مكتبه ٠٠ وكانت تلك هى بداية عملى معه ٠

(٤)

ـ بعـــد شـــــهور من عملى معـــه تعلمت أن أبلع الكثير من تساؤلاتى ٠٠ ليس لأنى وجدت لها أجوبة شافية ، بل لأنها كانت

تبدو لى مع الوقت كنوع من الأسئلة « الميتافيزيقية » التى يمكنها أن تنتظر قليلا ·· لأن أسئلة جديدة تطل برأسها كل يوم من قلب الصحراء التى تنبض بهدير الآلات وبعرق الرجال ، وبالزرع الأخضر الذى يتربص به الموت ·· لأن حياة جديدة هنا لا تكف عن تحديك بالأسئلة الجديدة التى قد تنبع من العمل أو بما يحيطك من نظم وعلاقات تجعلك فى حاجة الى أن تكتب اسمك كل يوم فى ورقة أمامك حتى تظل تذكر من أنت ؟

فالمشروع يجتذب بنقوده ونفوذه ، وتيارات عمله المتجدد المتدفق ، وبشهرته المدوية أناسا من كل جنس ولون وعمر وثقافة ، ويجد هؤلاء الرجال والنساء أنفسهم أمام أسئلة من هذا النوع :

« هل يمكن أن يصبح العمل هو الوطن ؟ وتصبح الخبرة هى القيمة التى تتضاءل الى جوارها كل القيم ؟ وتصبح النقود هى التعبير عن كل قيمة ؟ هل تصبح علاقات العمل بديلا لعلاقات الحياة ؟

وهل تنجح لغة العمل المشترك فى أن تربط أولئك الذين يتحدثون لغات مختلفة ؟

ورؤى المستقبل هل هى قادرة على أن تنسى المرء ذكريات الماضى ؟ الغريب أن أحدا من الناس هنا لم يكن يطرح صراحة هذه الأسئلة لأن أحدا منهم لم يكن يحب أن يعترف لنفسه أو لغيره بأنه يفكر بأى مستقبل له فى هذا المشروع ·

فجميعهم يصرحون بأنهم جاءوا للعمل بضعة أعوام يجمعون خلالها بعض المال ثم يعودون الى بلادهم ·

أكان هذا يعنى أنهم يشكون فى جدوى المشروع ومستقبله ؟

لا يمكن أن نصدق ذلك الا بقدر ما نصدق أن استمرارهم فى العمل بعد سنين عديدة ، وبعد أن أصبح بعضهم فى عداد الأثرياء فعلا دليل على أنهم يثقون بجدوى المشروع وبمستقبله ؟

مع أن الناس جميعا كانت تغلى صدورهم بمثل هذه الأسئلة فكأنما هناك اتفاق ملهم ومبرم على ألا يخوضوا فى اجاباتها وحين حاولت أن أبحث عن أسباب وراء هذا الاتفاق المبرم ٠٠ لم أجـــد أسبابا مقنعة لكنى كنت مضطرا الى أن ألاحظ استمرار ظاهرتين ٠٠

ان عددا قليلا جدا من العاملين فى المشروع هو الذى يصدق فى حديثه عن العـودة الى موطنـه وأن أعـــدادا كبيرة جـدا من الناس تأتى كل يوم لتسأل فى العلاقات العامة عما اذا كان المشروع لا يزال فى حاجة اليهم ؟

ولم يكن هناك ما يماثل قدرة الناس على امتصاص أسئلتهم الا قدرة المشروع على امتصاص هؤلاء الذين يجيئون كل يوم من مختلف البلاد المجاورة ٠٠

وكان من الطبيعى أن أسأل نفسى أسئلة على درجة كبيرة من البلاهة مثل : ما هو الحجم الحقيقى للصحراء ؟

وما القوة الحقيقية لهذه الشركة التى نعمل فيها ؟

كيف تستوعب كل هؤلاء الناس فى مشروع لا يزال الغموض يحيط بمستقبله ؟ وهل بقى أحد حقا فى البلاد المجاورة ؟

وأحيانا كنت أنقض الاتفاق الملهم وأسأل هؤلاء القادمين وقبل أن تبرم الشركة معهم أى اتفاق عمن بقى هناك وهل سيأتى الجميع الى هنا ؟

وطبعا كانوا يجيبون على ما يظنونه مزاحى قائلين :

ـ فى سن الزواج لا يفكر الشاب أن يكتب عقدا على البنت التى يحبها ، بل يحب أن يحصل على عقد مع شركتكم ؟ ان شركتكم هى الجنس الثالث الذى يتزوج الرجال والنساء جميعا · (كنت أبدو فى نظر القادمين واحدا من أصحاب الشركة) ·

وكان السؤال الذى لم أجد فرصة لأقوله للمدير يجد دائما الفرصة ليطل من جديد متحديا كل الأسئلة ·

لماذا يصرون على تعمير الصحارى بينما يتركون الأرض الخصبة دون تعمير ؟ والأرض الخضراء يزحف عليها الخراب بعد أن يزحف العاملون فيها الى أرض المشروع ؟

(٥)

ـ بعد سنين من عملى فى الشركة كنت قد أصبحت جزءا منها ، أمارس دون تفكير سلوك العاملين فيها ، أشارك فى اتفاق الصمت الملهم ، ولدى القدرة على أن أتحدث ساعات فى لا شىء ، وأغرق فى البلادة دون أن أشعر بالقرف من نفسى ، وأعمل كالبغل مع أنى أستخدم منجزات التكنولوجيا أحيانا كثيرة ··· وحين يومض فى داخلى شىء كالبرق ولا أملك أن أتحدث به أو عنه ··· ألجأ الى دفتر صغير أسجل فيه مثل هذه الومضات ·

(٦)

ملحوظات دونتها فى مذكرتى فى أوقات متفرقة :

(أ) الأيام هنا متشابهة كأنها يوم واحد طويل ينام الناس خلالها نوما منقطعا ، وعيونهم مفتوحة أو نصف مغمضة ، وأحيانا

لا يمكنهم التمييز بوضوح بين ما يرونه فى اليقظة أو فى الحلم ٠

(ب) أشعر أنى أحصل على ثقة المدير ، فأنا أتفاهم معه بأقل قدر من الكلمات ، وحتى الآن لم يحدث ما يشى بسوء تفاهم معه ، ورغم قلة الكلمات التى نتبادلها ٠٠ أمس سمح لنفسه بأن يتنهد أمامى ٠٠ وأن ألاحظ كم هو مرهق ٠ ووصف شخصا لا أعرفه ـ وطبعا لم أسأل عنه ـ بأنه حمار (وكان يتحدث بشأنه مع شخص آخر بالتليفون) ٠

(جـ) الناس هنا يموتون فى الغالب فجأة ، وكأن الموت يعرف أن هذه هى الطريقة الوحيدة الممكنة للتعامل معهم فلو أنه قام بأية مقدمات ، لربما عادوا جميعا الى بلادهم ليموتوا هناك ، مما قد يؤدى الى فشل المشروع ٠ لماذا يحرص الناس على الموت فى بلادهم ، مع أنهم أقل حرصا على الحياة فيها ؟

أليس ذلك نوعا سخيفا من الأنانية ؟ أم أنه لون جديد من الوطنية ؟

(د) ثقة المدير بى تزداد مع الوقت ، كان وقت العمل قد انتهى ، دون أن ينتهى هو من فرز الأوراق التى أمامه ، ويبدو أن التعب قد نال منه فلم يبق كعادته لينجز كل شىء حتى بعد نهاية الوقت ، طلب منى فى لهجة ودودة أن أفحص هذه الأوراق المتبقية ، وأرتبها حسب الأهمية ليراها فى صباح الغد ، وحين تفحصت هذه الأوراق وجدت بينها بعض الأوراق الشخصية ٠٠٠ وكأنها مسودات رسائل يكتب منها سطرا أو بضعة أسطر تبدأ كلها ودون أن تنتهى باسم صديقى العزيز « سيد موافى » أهى مصادفة أن يكون اسم المدير « سيد كريم » وأن يكون اسمى « سيد منصور » ؟

أهذا هو السبب فى أننى قرأت هذه البدايات التى لم تكتمل لهذه الرسائل ، أم أننى أعتذر بذلك عن فعلتى ؟ ولماذا أعتذر ما دام

هو قد سمح لى بتنظيم أوراقه ؟ ألا يتضمن هذا تفويضاً بقراءتها ؟ لكن أليس من الجائز أنه فى غمرة التعب والعمل نسى ما تحتويه كل هـذه الأوراق ؟

(هـ) الناس هنا قادرون ـ وهذه احدى المعجزات الحقيقية للمشروع ـ على أن يدخروا الكثير ، وينفقـوا الكثير فى نفس الوقت ..

انهم يدخرون النقود ، والتحف الثمينـة ، وقطع القمـاش الغالية التى يشترونها دون أن يكونوا فى حاجة اليهـا ، وأوقات الهناءة ، والأجازات ، والحماسة والرغبة فى توطيـد العلاقات ، ويفضلون على ذلك كله أن يقوموا بعمل اضافى وهم يعملون حساب كل شىء ويدققون فى كل الأمور الا حين يجلسـون الى موائـد الطعام ..

ربما كان هذا هو السبب فى ميلهم الى السمنة رغم العمـل المتواصل .

(و) اذا صح حدسى ، فأنا فى طريقى لكى أصبح صديقا للمدير بالأمس كنت أقدم له آخر المعلومات اللازمة لكى يتخذ فى ضوئها قراره النهائى بشأن مشروع لتربية المواشى .

استبقانى بنظرة لم أر مثلها فى عينيه من قبل .. كانت تشى برغبته فى أن يتحدث الى صديق .. قال لى :

أتعرف ... ؟ ليست المعلومات هى كل ما ينبغى أن ترجع اليه قبل أن تتخذ قرارا هاما ... هناك صوت داخلى لابد أن تحسن الاستماع اليه ... صوت تتجمع فيه كـل خبرات حيـاتك التى لا تعـرف عمـرها الحقيقى ولا مصـدرها ولا تعـرف كيف تتكون فى داخـله ...

أتعرف من أول انسان حدثنى عن ذلك ، « سيد موافى » كدت أنسى نفسى وأقول له :

ـ أجل ·· أعرفه ·· أليس هو ··

ولكنى قلت له :

ـ من سيد موافى ؟

ـ صديق عمرى كله ··· ثم تابع ·

ـ لم أره منذ عشرين عاما ·· تصور ؟ عشرين عاما قضيتها فى المشروع وهو لا يزال فكرة تناقشها الشركة (كنت أدعو الله ألا يدق جرس التليفون ، وألا يدخل أحد وألا يتذكر المدير أنه المدير) ·

عشرين عاما أنا مدين بها كلها له ، لولاه لكنت فى عداد الموتى ثم قال : لم لا تجلس ؟ قالها بصوت ودود هامس وحين جلست استطرد قائلا :

ـ يظل الانسان يعمل هنا كأن أحدا يطارده ·· فجأة يتذكر أنه قد مضى على ذلك عشرون عاما ·

ان مجرد مرور الزمن شىء يبعث الرعب لو قدر لك أن تراه كما أراه الآن ···

صدقنى لم أشعر بذلك الرعب وأنا أواجه الموت منذ هذه السنوات العشرين ، كنت أيامها فى مثل سنك أو ربما أصغر قليلا ··· أيامها ، كنا (سيد موافى وأنا) فى مهمة لنسف موقع يحتله المستعمرون فى بلادنا ، وكان على كل منا أن يؤدى مهمة مختلفة ويعود وحده ··· كانت الأوامر التى نحملها صريحة وواضحة بضرورة أن يعود من يبقى منا على قيد الحياة دون أن يسمح لهم

بالأمساك به وحين أصبت برصاصة فى ساقى لم أعرف كيف جاء « سيد موافى » وحملنى على ظهره وعاد بى ..

قلت له بعدها بوقت طويل :

ـ كيف فعلت ذلك متجاهلا الأوامر ؟

قال ـ هناك أمر واحد حقيقى .. هو ما ينبغى أن تنصت اليه فى الأوقات الحاسمة ، هو صوتك الداخلى وقد أمرنى أن أعود بك . ثم تنهد المدير في عمق وقال بنفس الصوت الهامس المتذكر ودون أن أستحثه بأى سؤال :

ـ حين زينت له يجىء معى لنعمل معا فى هذا المشروع رفض بشدة .

ووقتها سألنى : ما الذى يدفعك الى الذهاب الى هذا المشروع .

قلت له مازحا مذكرا ..

ـ صوتى الداخلى ...

ـ نترك بلادنا بعد أن تحررت ؟

ـ من أى القيود تحررت وفى أيها سقطت ؟

ـ حتى لو كانت هذه فكرتك فلتبق ولتكافح لتحريرها ... من جديد .

ـ تعبت من معركة الصواب والخطأ ... أريد أن أفعل شيئا لا يمكن أن يكون خطأ .

ـ تعنى زراعة الصحراء ؟

ـ نعـــم ٠

ـ حتى هذه ، الصواب والخطأ فيها رهن بالنتائج ٠

ـ سأحاول ٠٠

ـ حاول أن تكتب لى أيضا من هناك ، أما أنا فسأكتب لك دائما من هنا ٠٠٠ واحذر أن تختفى فى هذه الصحراء فلا تتـرك أثرا ولا نسمع عنك ٠٠

كان المدير يتحدث كمن يتحدث الى نفسه ، شاخصا بعينيـه الى المجهول كأنه يرى « سيد موافى » أمامه أو لعله يظننى هو ٠٠٠ ثم استطرد كمن أفاق فجأة ٠

ـ تصور ٠٠ وفى بوعده ٠٠ ظل يكتب لى طوال هذه الأعوام العشرين ، فى البداية كنت أرد على رسائله ثم تحققت نبوءته ٠٠ يبدو اننى تهت حقا فى هذه الصحراء ٠٠ دون أن أدرى ٠٠ منـذ ما يزيد على عشرة أعوام وأنا لا أرد على رسائله دون أن يكف هو عن الكتابة الى ٠٠

لو أن رسائله انقطعت عنى لقلت لنفسى معزيا :

ـ ربما مات صديقى ٠٠

ولكنه ظل يكتب لى ليؤكد لى دائما أنه لم يمت ، وأن الذى مات حقا هو أنا ٠٠

ثم تمتم بصوت مخنوق بدمعة متحجرة ٠

ـ يبدو أننى تهت فى هذه الصحراء ٠

قلت مواسيا ومترددا حتى لا يوقظه وجودى من صحوته :

ـ ولكنها يا سيدى لم تعد صحراء ٠٠

ومضت فى عينيه نظرة مخيفة قال :

ـ ستكون مصيبة حقا لو كانت الأرض هى التى أصبحت خضراء بينما قلوبنا أصابها الجفاف ٠٠ !

ثم استطرد بعد تنهيدة قصيرة :

ـ كنت أقول لنفسى متعللا بمثل هذه الأعذار ٠٠ (حين يتصل الأمر « بسيد موافى » فلا يمكن أن أكلف أحد مساعدى بالكتابة له ٠٠ لابد أن أكتب له بنفسى) ثمة أشياء لا أحد غيرى يمكنه أن ينقلها له ٠٠٠ « سيد موافى غير كل الناس لا أحد غيرى يفهم مغزى الكلمات القليلة التى يكتبها لى ٠٠٠ كيف أكلف غيرى بالرد عليه ٠٠ سيعرف أن هذه ليست كلماتى ٠٠ وسيعرف أننى تهت حقا فى الصحراء ٠٠

وهكذا مضت كل هذه الأعوام ٠٠٠ يدخل الزائرون من كل بلد وجنس ولون ٠٠ وأقابل وأكتب عشرات الرسائل كل يوم ٠٠ و « سيد موافى » يبقى الوحيد المنتظر فى حجرة الزوار ٠٠ قلت فى محاولة يائسة وماكرة لانقاذ الموقف والدخول فيه :

ـ أتسمح لى يا سيدى أن أنقل له ما حدث اليوم فى رسالة أكتبها بنفسى ٠

رفت على شفتيه ظلال ابتسامة باهتة وقال :

ـ منذ جئت لتعمل معى ، وأنت تلتقط أفكارى وهى سوانح ربما ليس مصادفة أن لنا نحن الثلاثة اسما واحدا ، وفى الحقيقة لم أعد أحتمل ألا أكتب له ، ولم أعد قادرا فى نفس الوقت على مواجهته ٠٠ بالكتابة ٠٠ وفى الحقيقة أنا لا أدرى لماذا تحدثت لك كل هذا الحديث ٠٠ ربما كنت أريد أن أقول لك : « أنت الشخص الوحيد الذى يمكن أن ترد عليه باسمى ودون أن يدرى أنك شخص

آخر · سوف أحضر لك بعض رسائله ، وأكتب له كما تحب وابعث اليه برســـالة لا أريـد حتى مراجعتهـا ·· يخيل الى أننا أصبحنا صديقين الى حد التآمر ، ويمكنك تقليد حتى توقيعى على خطاب مكتوب على الآلة الكاتبة ··

وفجأة صحا مديرى فى صحوته ··

وقال وهو يدفع بقصاصات يبدو أنها كانت فى درج مكتبه ·

ـ هذه بعض رسائله ··· يمكنك أن تقرأها ثم تكتب له ما تراه مناسبا ·· وآسف على أنى أخرتك كثيرا هذا اليوم وأخبرنى فقط بعد أن ترسل الخطاب ·

(ص) الناس هنا يشتد حنينهم الى العودة ، ويكثرون من الحديث فى ذلك حين يموت أحدهم ويشيعونه الى مقره الأخير ، الصحراء قاسية فى ابتلاع الموتى ، فرق كبير بين أن تهيل على الميت ترابا أو رمالا ··· الرمال ثقيلة على الجســد ، ولو كان جسد ميت ، فهى لا تسمح بأى قدر من الهــواء أو الحركة ، وما لم تكن روح الميت قد صعدت حقا الى بارئها ، فسوف تدفن معه الى الأبد فالرمال لا تسمح بالحركة حتى للروح ··

(ز) أيمكن أن يتشابه خط الرجلين الى هذا الحد ؟؟

« سيد كـــريم » و « سيد موافى » ؟ لم يكن « سيد موافى » يحرص على كتابة تاريخ لرسائله ، فكيف ارتبها تاريخيا لأفهمهـا أفضل وليكون ردى عليها معقولا ··· ؟ ســأحاول · هل خلط مديرى المرهق دائما ـ ودون أن يدرى ـ أوراقه الخاصة بأوراق صـــديقه ؟

وكيف أميز أوراقهما وخطهما متشابه [illegible]

البحث عن الأوراق المختلطة :

(٧)

« هذه بعض القصاصات التى تسلمتها من المدير على أنها رسائل جاءته من صديقه « سيد موافى » وهى أحيانا بلا توقيع ، ولا تشبه الخطابات التقليدية ، ·· وأكتفى بتسجيلها هنا ··· ضمن مذكراتى ·

(ف) اخبار مشروعكم لا تزال تهز الدنيا ، وشركتكم الكبرى لا تكف عن الدعاية للمشروع من خلال اعلاناتها عن سلعها الكثيرة التى تملأ الأسواق ، وتغطى كل الاحتياجات وكأنه لم يبق لها سوى أن تزرع الصحراء هى الأخرى ·

ويخيل الى أحيانا أن هذه أبرع وسيلة للدعاية فأنت لا تعرف هل المقصود حقا هو الدعاية للمشروع من خلال الاعلان عن السلع التى تنتجها الشركة القائمة به أم أن الغرض الحقيقى هو الدعاية (بطريقة غير مباشرة) عن السلع التى تنتجها شركة لها مثل هذه الأهداف الانسانية كتعمير الصحارى من أجل مستقبل أفضل للجنس البشرى كله ؟؟

ومهما يكن هدف شركتكم فهى ولا شك شركة عظيمة وناجحة ، وأتمنى لك كما تمنيت دائما كل نجاح بشرط ألا يشغلك عن مجرد الكتابة لنا ···

أمس زرت قريتنا ، والجميع هناك يسلمون عليك والأحوال كما تعرفها ، ولقد خطر ببالى خاطر لا أكتبه لك كفكاهة بل كحقيقة ··· لقد سألت نفسى حقا لم لا يكون لشركتكم فرع هنا فى قرتنا وفى القرى المجاورة ·· فكر فى ذلك ·· فقد تنجح فيما فشل فيه أبناء جيلنا حين ظنوا أن كفاحهم كله يمكن أن ينتهى بطرد المستعمر ؟ ·

« سيد موافى »

(ط) وجدت هذه الورقة الصغيرة ضمن الأوراق التى تسلمتها من المدير ولا أعرف مصدرها « أن منظر شجرة خضراء فى غابة قد لا يلفت النظر ولكن منظر شجرة خضراء فى الصحراء يمكن أن يهز الروح ·· أيمكن أن يكمن فى هذه الفكرة جزء كبير من سحر المشروع ؟ »

(ى) هل يمكن أن يكون الحب والصداقة ليسا سوى شكلين مراوغين للحاجة والمصلحة ؟ وحين تنتفى الحاجة أو المصلحة يختفى الحب والصداقة معا ·· والا فقل لى بالله عليه كيف أفسر صمتك اللعين ؟ وكيف تفسر أصرارى على أن أكتب لك رغم هذا الصمت ؟ لو جئت لزيارة بلدك مرة واحدة ربما لأدركت كما لا يمكن لأحد أن يشرح لك أن النقود التى تبعث بها لأقاربك بين وقت وآخر ليست أبدا هى كل ما هم فى حاجة اليه منك ·· أما فيما يتعلق بى فثق أنه لا يهم كثيرا أن ··· « هكذا وجدت هذه الرسالة ناقصة وفى أسفلها وجدت هذا التعليق بخط سيد كريم الذى أعجز عن التفريق بينه وبين خط « سيد موافى ») ·

لا يمكن أن يكون حبا أو صداقة أو حتى كراهية ذلك الذى يحدث بين من يلتقون فى المطارات والفنادق بين من يلتقون وفى أعماقهم أنهم مسافرون بعد شهور أو أعوام يحتاج الحب والصداقة ·· الى الزمن والأرض والخيال والأمل ·· يحتاجان الى وطن فهل سيأتى وقت أشعر فيه أن المشروع قد أصبح وطنا بحق ؟؟

وأن أجد هنا صديقا أو حتى عدوا ·· ومتى ؟

هذه القصاصة دخلت هنا عن
طريق الخطأ وهى من يومياتى

« **سيد منصور** »

(ك) حين تهب العواصف الترابية يشعر الناس بما يشعرون بـه حين يشيعون واحـدا منهم الى مقره الأخير ·· ويبدأون فى الحديث عن ضرورة العودة الى بلادهم فالعواصف الترابية تدفن السماء والأرض ، وتدفن الشمس والقمر والنجـوم ، وتبدو وكأنها تريد أن تدفن الناس أنفسهم وهم أحياء ، ويرتجف الزرع الأخضر ، ويعجز عن أن يأوى الى أى مكان ، وتصبح جذوره التى كانت تمده بالحياة هى مقتله ·· انه لا يستطيع أن يهرب منها أو بهـا ·· ويتسلل التراب الناعم الى كل مكان لا تسلم منه عقول الناس وقلوبهم ، ويتحدثون بأسى عن العودة ولكن كبـار المسئولين عن المشروع وحدهم يؤكدون ان نوبه العواصف قلت بكثير عن الماضى مما يؤكد نجاح المشروع ولا تكاد العواصف تنجلى حتى يردد الجميع هنا ·· لا شـك أن العواصف قلت بالفعـل عن السنين الماضـية وأصبحت أقل ضراوة ···

(ل) فكرت مرة أن أكتب الى رئيس مجلس ادارة شركتكم الموقرة ليحاسبك على عدم ردك على رسائلى ، ويأمرك بالكتابة الى صديق قديم ، ساعتها تصورت أنك لن تقـدر على مخـالفة أوامر رئيس مجلس الادارة وسوف تكتب الى حتما ولو بضعة سطور ·· وضحكت من هذه الفكرة المضحكة وعدت كعادتى أكتب اليك أنت ·· قانعا بصمتك الذى أفسره بما يروق لى واثقا من أن السـطور التى يمكن أن تكتبها لى بأوامر رئيس مجلس الادارة لن أجد فيها أى شىء منك ·· يا ويلى ·· لو كانت هذه هى الحقيقة ، انه لم يبق منك شىء مما كنت أعرفه وأحبـه ·

(م) « برقيـة » ·

الحريق الذى دمر قريتنا حدث نتيجة ماس كهربائى والمشكلة أن الأهالى رغم دخـول الكهرباء الى القرية لا يزالون يضعون

القش على الأسطح ، الجديد والقديم يعيشان معا فى بلدتنا ..
الأهالى يشكرونك على معونتك والحكومة بذلت ما فى وسعها .
ولا زلنا نملك بعض القدرة وبعض الامل .. لم يعد أهل القرية غاضبين لعدم عودتك كما كانوا .. فالمبلغ الذى أرسلته من تلقاء نفسك بعد أن سمعت بخبر الحريق كان أكثر من ضرورى ولازم .. ولعلهم أخيرا وجدوا بعض المغزى فى بعدك عنهم ؟ » .

« سيد موافى »

(ن) « برقية » .

والدك انتقل أمس الى رحمة الله .. مات وهو يشكرك على كل ما بعثت به اليه والى القرية .. كان يتمنى أن يراك قبل موته لكن سبقت ارادة الله .. قمنا باللازم ومجيئك الآن .. لن يكون ضروريا ما دام لن يراك ولن تراه لا تترك هذا الموضوع يؤرق ضميرك » .

سيد موافى

(س) ليست هذه أول مرة يحدث فيها حريق يدمر قريتنا ولكنها أول مرة يبدو الناس فيها متخاذلين عن بناء القرية من جديد بعد مثل هذا الحريق ..

ما السبب لا أدرى على وجه اليقين ؟ هناك أقوال بأن الحريق لم يحدث قضاء وقدرا . وأن هناك اهمالا جسيما يصل الى حد التخريب وقع من المسئولين عن توصيل الكهرباء الى القرية ؟

بل ان البعض يؤكد قصد التخريب ، ويطالب بضرورة التحقيق فى هذا الأمر قبل اعادة بناء القرية .

على أنه يمكن أن يكون هناك سبب آخر أذكره لك وحدك لتخاذل الناس ، فالجيل الجديد كله تجتذبه أضواء مشروعكم ، حتى ليبدو الخيار بين العمل فى بناء القرية ، والعمل عندكم أمرا مضحكا لهذا الجيل من أبناء القرية ؟ هل تصدق ؟

سيد موافى

(٨)

ـ الفكرة والقرار

لا أدرى كيف هبطت عى رأسى هذه الفكرة ، واتخذت بعدها هذا القرار ، بعد أن قرأت الأوراق المختلطة ٠

الفكرة : « أن » سيد موافى هذا هو نفسه « سيد كريم » ، لا أعنى أبدا أن « سيد موافى » شخصية وهمية اخترعها « سيد كريم » فقد يكون « سيد موافى » حى يرزق ويكتب الرسائل لسيد كريم أحيانا ٠٠ دون أن يرد عليها ٠٠ وأغلب الظن أن هذا حقيقى ٠٠ ولكن المسألة لا تختلف بالنسبة للفكرة المجنونة التى هبطت على رأسى ٠٠ ولكى تتضح الفكرة دعونى أحدثكم عن القرار :

بدلا من أن أكتب رسالتى المنشودة الى « سيد موافى » بتوقيع سيد كريم أكتبها الى « سيد كريم » بتوقيعى « سيد منصور » ولماذا أزعجكم بالتفاصيل ٠٠ اليكم صورة هذه الرسالة فقد كتبتها بالفعل منفذا قرارى :

« سيدى المدير ٠٠ سيد كريم

منذ جئت الى هنا ٠٠ وأنا أنتظر الفرصة كى أتحدث اليك كما يتحدث الانسان الى الانسان ٠

وها أنت قد أتحت لى أخيرا هذه الفرصة ، وسأكون مجنونا بحق لو تركتها تفلت ٠

قد اتخذت قرارك الخطير بأن تفتح لى قلبك ، وطلبت منى أن أكتب رسالة باسمك الى صديقك سيد موافى ٠٠

ولقد ألهمنى موقفك هذا أن أتخذ بدورى قرارا منفردا مستقلا ٠٠ وهو أن أكتب الرسالة التى طلبتها ٠٠ أن أكتب لك أنت موقنا أننى أنفذ تعليماتك نفسها فسيد موافى هو أنت نعم يا سيدى ٠٠ أنتما شخص واحد ٠٠ والرجل الذى ظل ينتظر منك الاذن بالدخول أكثر من عشر سنوات ٠٠ هو أنت ٠٠ هو ذاتك الحقيقية ٠ ولو سمحت له مرة واحدة أن يدخل اليك مع غيره من الزوار ، لما واجهت غير نفسك ٠٠ لقد كنت تقابل كل الناس ما عداه ٠٠ كنت واثقا من أن صبره لن ينفد ، وأن قدرته على تصديق الأعذار التى تقدمها له لن تنتهى ٠٠ فليس مثل الانسان من هو أقدر على تصديق نفسه ؟ ان مرور الزمن ليس وحده المرعب يا سيدى ، ولكن المرعب حقا هو أن يمر الزمن فيجد الشخص الواحد قد أصبح عدة أشخاص لا يتقابلون ، ولا يتكلمون وفى حاجة الى ما يشبه المعجزة لكى يحدث بينهم لقاء ٠

أعرفت الآن لماذا لم أستطع أن أتحدث اليك طوال السنين الماضية كما يتحدث الانسان الى الانسان ؟

لأن الذى يهرب من نفسه يهرب من كل الناس ٠٠ ولو صدقت أن المعجزة التى كنت بانتظارها ٠٠ والتى لا تقل روعة عن تعمير الصحارى يمكن أن تقع فى هذه اللحظة فسوف تأذن لى بعد قراءة هذه السطور فى أن نجلس معا ونتحدث كما يتحدث سائر البشر ، وأقول لك كل الأسئلة التى كنت احتجزها فى صدرى طول الوقت، والتى لا أجد أحدا مثلك يملك القدرة على الاجابة عليها لو أراد ٠٠

أعرف أننى أتجاوز بهذه الرسالة كل حدودى ، وقد تعاملنى بأقسى مما عاملت «سيد موافى» ·· وقد تكون هذه الرسالة آخر ما أقوم به من أعمال فى أرض المشروع ولو فعلتها يا سيد وفصلتنى فلن أنسى لك ما حييت هذا الجميل ·· لأنك سوف تكـ قد قدمت الى المساعدة التى أشعر أننى عاجز عن تقديمها لنفسه ·

« سيد منصور »

(٩)

ـ لم أنتظر حتى يطلبنى الى لقائه ، ولم أ له بالرسالة مع أحد ·· دخلت من تلقاء نفسى ، تلقانى بنظرة ؤها الدهشة قال :

ـ الأرواح جنود مجندة ·· هل تصدق سأناديك فى نفس اللحظة ·· ؟

كان وجهه مشرقا اشراقا رائعا ·· شار الى المقعد المجاور فجلست وأنا شبه مأخوذ بالنظرة الغريبة التى كانت فى عينيه ··

(كان قد أصبح المدير مرة أخرى)

استطرد :

ـ منذ أيام صدر قرار سرى باعتبار المشروع قد تجاوز مرحلة التجريب ، ويمكن تعميمه فى صحراوات أخرى كثيرة ·· وسأكون عضوا منتدبا لتمثيل مجلس الادارة فى المواقع الجديدة ·· ولم أجد خيرا منك ليأخذ مكانى فى المشروع هنا ·· واذا كانت هناك

معجزة حقيقية لا تقـل عن تعمير الصحارى فهى تقدير المسئولين هنا للعاملين عندهم ..

ثم قال وهـو يغادر مقعده ..

ـ أنا ذاهب الآن لمقابلة رئيس مجلس الادارة لأعلنه بموافقتك .. (كان قد أصبح فى منتصف الحجرة)

لم أترك مكانى .. كان كل شىء فوق الاحتمـال .. قـال وهو يغادر الحجرة كمن تذكر شيئا :

ـ بعثت بالخطاب الذى كلفتك به ؟

ثم أضاف مازحا وهو يختفى عن عينى .

ـ هذا الخطاب سيكون آخر عمل قمت به فى وظيفتك السابقة وأعتقد أنه سمعنى وأنا أقول له بصوت متخاذل :

ـ نعـم ..

ودون أن أخرج الخطـاب من جيبى ..

ذلك الحـــلم

لكل منا أحلامه ، أقصد عالم أحلامه ، ولو كنت ممن يتذكرون أحلامهم فسوف تتذكر أنه يسـير فى خط مواز لعـالم يقظتك عـالم آخر قوامه أحلامك ، أعنى كل أحلامك ، فعالم الأحلام ليس مجـرد نتف أو شظايا ، انه لا يكون كذلك الا بقدر ما يكون عالم اليقظـة كـذلك !

واذا كنت ممن تحـل عليهـم نعمـة التذكر أو نقمتـه فسوف تذكر بلا شك أن لأحلامك تاريخ ، توشك حلقـاته أن تتصل ، وأن تاريخ أحلامك لا يهيم فى الفراغ ، فلكل الأحلام جغرافيتها التى قد تتفق أو تختلف عن جغـــرافية الواقع ! لعـالم الأحـــلام ألوانه وروائحه ، بره وبحره ، طيوره وحيواناته وأشجاره وغاباته ، وفى النهاية منطقه الخاص الذى تتلاشى فيه الحدود بين الواقع والحلم!

فى اليقظة كما فى الحلم كنت أتذكر ذلك المكان ، أتذكر أننى رأيته مرارا فى أحلامى ، فى اليقظة كما فى الحلم كانت تعترينى تلك الرعدة التى تبعثها فى النفس رؤية منظر يتعانق فيه الجمال والجلال ، فى لحظة يرق فيها الضوء ويصفو فلا تدرى أهى لحظة غروب أم شروق ؟

ذلك الطريق الذى أجدنى فجأة فى منتصفه تحدق به أشجار غابة كثيفة ، يتفرع منه الى اليمين ممشى هادىء أو ناعم تفرشه الأعشاب القصيرة ، على جانبيه حشائش خضراء ناعمة وعالية كأنما لتعجز عن رؤية ما وراءها ، ما بداخلها !

يتسلل الى شعورى بالجمال والجلال شعور بالرهبة ، رغم أننى سرت فيه مرارا فى أحلامى الماضية ، رغم أننى أعرف ماذا سأراه فى نهايته عندما ينتهى الطريق الى بداية حديقة رحبة فسيحة تحيط بذلك القصر الغريب المهيب ! قصر لا ينتمى طرازه الى عصر بعينه ، كأنما اشترك فى بنائه على حلقات مهندسون من كل العصور، بعض حجراته تبدو وكأنها قد نحتت فى قلب الصخور التى يتربع فوقها القصر الغريب المهيب ، بعض شرفاته تغطيها قباب من العصور الوسطى ، مداخنه ذات طابع عصرى ، بعض سقوفه مثلثة لتتوقى جليدا لا يسقط أبدا فى أحلامى كلها !

تذوب رعدة احساسى بالجمال والجلال والرهبة فى شعور قوى بالألفة والصداقة للمكان كله ، للقصر المهيب الغريب ، لحديقته التى تبدو وكأنها تركت لتنمو على طبيعتها ، ثمارها فى متناول اليد ، طيورها فى كل مكان ، سورها من الأشجار القصيرة التى زرعت بقصد أن تكون سورا يحدد بداية القصر ونهايته .. يفصل بين أشجاره وأشجار الغابة ، للمكان أصوات هى أصوات الرياح والطيور وخشخشة الفروع والأوراق ! وفى انتظار صوت بشرى فى هذا المكان يجىء صوت آخر ، صوت أعرفه وأتوقعه وأخشاه

رغم ذلك ! صوت يجمدنى فى مكانى فلا أقترب خطوة أخرى من القصر المهيب الغريب ، صوت أسمعه وأراه فى نفس الوقت ، أراه فى حركة العشب الأخضر الذى تنبىء حركته فى هذه المرة عن حركة الجسم الذى يتخلله فى هدوء وثقة ، وفجأة أراه أمامى ، بارزا من خلال الأعشاب الطويلة الناعمة ، بشعره المسترسل الذى يتخلل بياضه سواد وغبرة ، بأذنيه الطويلتين المتدليتين ، بتلك النظرة التى أعرفها كما تعرفنى ، نظرة تراها فى عيون كل حارس يعرف واجبه ، لا يزيد عنه ولا ينقص ، نظرة لا تتصف بالعدوان ولكنها لا تسمح لمن يراها بالتفكير فى أى عدوان ، تحسم المعركة فى خاطرك ، ولا تأذن لك بالتفكير فى الخداع أو المخاتلة !

لا أمل فى دخول هذا القصر قبل أن أرى أو يرانى واحد منهم ، واحد من أهل البيت الذى تمتلىء أحلامى كلها ايمانا بأنهم أهلى !

آنذاك قد يعرف ذلك الحارس الذى يظهر فى كل أحلامى أننى واحد منهم ، جدير بثقته هو أيضا ، بأن يستقبلنى ـ كما لا شك يستقبلهم ـ هاشا بذيله ، مداعبا بأظافره وأسنانه ، ولكن أحلامى كلها كانت تمضى واحدا وراء الآخر دون لقاء معهم .. مع واحد منهم .. دون فرصة واحدة للاقتراب من سور القصر ، فضلا عن أبوابه ! دون أن يكون هناك دليل واحد على وجودهم .. سوى وجوده .. هو وحده الكائن الحى حول هذا القصر الذى يؤذن وجوده بوجود أناس يحيون داخل ذلك القصر الغريب المهيب ! وهو وحده الذى يحول دون لقائى معهم ، ودون التأكد من وجودهم !!

★★★

ودائما كنت أنتظر حلمى ، أنتظره فى هذا المزيج الرائع من الجمال والجلال والخشية والترقب ، واثقا من أن شيئا ما لابد

أن يحدث ـ ولو فى الحلم ـ فأعود الى القصر الذى تمتلىء أحلامى كلها شعورا بأنه بيتى ، متنقلا بين حجراته الحافلة بالغـــرائب والأسرار ، متعرفا الى من فيه من أهلى واخوتى . الذين لم يتركوا ما يدل على وجودهم سوى ذلك الحارس الذى أحبه بقدر ما أخشاه ، وأتوقع أن يتم بينى وبينه حوار المحبين حين يعرفنى وأعرفه !

★★★

فى هذه المرة وجدته ، لا كما كنت أجده فى كل مرة ســابقة حـــرا طليقا !

فى هذه المرة كان ثمة حبل طويل يلتف حول عنقه ، يربطـه الى ما لا أراه من أشجار الحديقة !

فى هذه المرة كان يرقد مادا ذراعيه ، مقعيا على خلفيته ، مشرعا فى عينين ثابتتين كأنه يرى ، فى نظرة واحـــدة ـ كل ما حـــوله !

لأول وهلة أحسست براحة نزقة .. أهـــل البيت لابد قـــد عادوا ! فما من أحد غيرهم يملك أن يمد اليه يدا بمثل هذا الحبل ! لحظة لقائى بهم قد دنت ! أصبحت أبواب القصر وسلالمه فى متناول يدى وقدمى ! لن أنتظر حتى أرى أو يرانى واحد منهم !

متى زايلنى هذا الشعور بالارتيـــاح ؟ كنت دائمـــا أتمنى أن تكون لحظة لقـــائى بهـــم هى لحظة لقائى به ، وهو يتنقل فى مهابته وطلاقته ، كنت أتمنى أن أشرح كيف كان يقوم بدوره فى غيبتهم ! ما هكذا ينبغى أن يفهم ذلك الحارس العظيم أننى أنتهـز فرصـــة لا يملك فيهـــا حريته لأنال حريتى فى الدخول الى هذا القصر !

ما هكذا ينبغى أن يعامل الحراس العظام ممن اعتمدوا عليهم ووثقوا بهم ! لماذا يربطونك فى هذا الحبل الطويل ؟

لماذا لا تريد يا صديقى أن تصدق أننى واحـد من أهل البيت؟ طالت غيبتى كما طالت غيبتهم !

لماذا أرى فى عينيك نفس النظرة التى كانت تشل قدمى ؟

كأنك تقول لى : اننى قادر على أن أوقفك فى مكانك وأنا مشدود الى مكانى !

لكن لماذا يربطونك حقا بكل هذه الحبـال ؟

أرى حبلا مشدودا الى الوراء يربطك بما لا أرى من الأشجار ولكن ماذا يعنى ذلك الحبل الآخـر الذى يمتـد الى ناحيتى كأنه يدعونى لكى أمسك به ، لكى أتجرد من كل مخاوفى وأمسك به !

متى لاحظت أنه يمتد الى ناحيتى وكأنه يريد أن يمسـك بى وقبل أن أمسك به ؟

متى بدأت ألاحظ أنه لم يعـد حبـلا واحد بل حبـالا كثيرة تنساب هنا وهناك كأنها خيوط من الدماء النازفة !

متى بدأت يا صـديقى أستوعب الحقيقة المروعة فى هذا المكان الذى كان يتعانق فيه الجمال والجلال والخشية والترقب ؟ كان ذلك حين حاولت الامساك بواحد من هذه الحبال لأجد يدى وقد أصبحت فجأة ملوثة بدمك !

فى حياتى كلها ، فى أحلامى كلها لم أر حارسا مثلك لا ينسى وهو ينزف ، وهو مشدود الى ما لا يرى من الأشجار أنه لا يزال حارسا ، يمتلك نظرة الحارس وقدرته على أن يرى كل شىء ، وأن يوقف كل شىء فى مكانه !

ولكن لماذا أتوقف حتى عن نجدتك ؟ يقينا لم نعد وحدنا فى هذا المكان يا صديقى ! ولعلى لا أحلم هذه المرة !

كيف حدث ذلك ؟ كيف تسلل القاتل الى هذا المكان الذى كنت أخفيه فى أحلامى ؟ وأين كان أهل البيت حين دوت الطلقة ؟ ومن أين جاءت ؟

وماذا يقصد القاتل ؟ يقينا لا يقصد مجرد قتلك ! ويقينا انه لم يذهب بعيدا عنى وعنك ؟! ولو خرج أهل البيت فى هذه اللحظة لما وجدوا غيرى ملوثا بدمك !

كنت أريد أن أحدثهم عن شجاعتك فهل بمقدورك أن تثبت لهم براءتى ؟!

أفكر فى اثبات براءتى وأنت تنزف ! أليس هذا دليلا على أننى مثل أهل البيت ٠٠ أمتلك نفس القدر من نذالتهم ! خيوط الدم النازف تمتد وتتشابك وتملأ المكان حولى برائحة الموت والجريمة ، ولا أحد يشم الرائحة سوى طيور الغابة التى لا أسمع غير أصواتها وهى تتنادى وتقترب ، وتنظر وتنتظر ؟!

هل ترى نظرتها ؟ وهل تدرك معنى انتظارها ؟

أما أنا فاعترف أننى عاجز عن فهم نظرتك !؟ عاجز عن فهم صمتك ! لم لا تصرخ لتوقظ النيام ؟ أم أنك لا تقوى حتى على الصراخ ؟ أم أنت تدرك أن هذه الصرخة سوف تجىء لك بكل شىء عدا أهل البيت ؟!

ما الذى تراه ولا أراه وأنت تواجه لحظة الموت ؟

يقولون ان الحقيقة كلها تبين فى هذه اللحظة ؟

فهل أصبحت ترى حقيقة أننى خائف أن ألقى بنظرة الى الوراء لأتبين معنى الأصوات التى أسمعها ٠

معنى الخطوات التى أشعر أنها تتوقف ورائى ! من كل ناحية لا أراها ٠٠ تجىء ٠٠ أسمع صوت تقصف الأوراق تحت الأقدام

التى تسير فى ايقاع هادىء ثم تتوقف ·· ورائى تتوقف ·· لتراها أنت وحدك بلا فزع · لترى عجزى عن مداراة فزعى وأنا أكتفى برؤية كل شىء فى عينيك !

لماذا لا يخرج أهل البيت الملعون لانقاذى وانقاذك ؟ هل يعلمون أن موتك سوف يكون دليل موتهم الوحيد ؟ الأصوات تأتى من كل ناحية عدا البيت ، والحقيقة التى كنت أخشى أن أتلفت لأراها لم تعد تحتاج الى تلفت ·· أصبحت تحيط بى وبك ، تحاصرنى كما تحاصرك !

كيف كنت تراها طول الوقت دون أن تطرف لك عين ؟

أفظع الحقائق هو ما لا تقوى على تصديقه وأنت تراه !

كل هذه الذئاب الجائعة والضباع المفترسة تجىء ·· من كل مكان فى الغابة تجىء ·· تتشمم خيوط الدم ·· تتبعها ·· ثم تقعى فى هدوء ·· على مقربة منك ·· على مرأى منك ·· تنظر وتنتظر ! رغم جوعها تنتظر ، رغم نظرة العجز فى عينيك تنتظر ، رغم روح الافتراس تنتظر !

كيف كانت تختفى فى هذا المكان الذى يتعانق فيه الجلال والجمال ؟

كيف عجزت عن رؤيتها فى كل أحلامى الماضية ، كنت أخافك أنت ولا أخافها ! كنت أخاف حريتك دون أن أفكر لحظة فى أنها هى التى كانت تربط كل هذه الوحوش فى أوكارها !

وها أنت الآن ترى الحقيقة التى لا تبين الا فى لحظة الموت حقيقة أنها كانت تخافك ! ولكنها فى هذه المرة تعلم أن لخوفها نهاية لا تستعجلها . نهاية وضعها أولئك الذين وضعوا الحبل فى عنقك ·

يقينا سوف يعودون ، أولئك الذين وضعوا الحبل فى عنقك ·

ويقينا أنك كنت تحبهم وتثق بهم والا لما استطاعوا أن يفعلوا ذلك ! واذا كانوا قد تأخروا قليلا فلأنهم لا يريدون أن ينظروا فى عينيك قبل أن تغلقهما الى الأبد ، هم أيضا ينتظرون ! هم على يقين من أنك لن تموت برصاصهم بل سوف تقتلك الحقيقة التى تتكشف لك الآن وسط هذا الجلال والجمال ، فى هذه اللحظة التى لا ندرى هل هى لحظة شروق أم غروب ؟

يقينا سوف يعودون ، ربما من قلب الغابة ؟

ربما من قلب القصر الذى يبدو صامتا كأنه لا ينبض فيه قلب !

كأنك تنتظر مني أن أفعل شيئا أو أن أشهد بشيء !؟

كأنك لاتزال تحلم بالنجدة ، يالك من أنانى ! ليس ثمة سوى طريقة واحدة ٠٠ لنجدتى ـ وأرجوك أن تغفر لى ـ فان هذا القطيع الهائل من الذئاب والضباع لم يتركنى حتى هذه اللحظة الا لأنه لا يرانى لأن عيونه معلقة بعيونك فى انتظار أن تغمضهما لحظة واحدة ٠٠ وليتك تفعل الآن ، حتى لا ترانى وأنا أقعى فى مكان وسط كل هذه الذئاب والضباع ، ليتك لا ترى أظافرى وأنيابى وذيلى وهى تنبت ، هل هناك لنجاتى من سبيل آخر ؟

★★★

ألمح فى عينيك كلمات مختنقة ٠٠ كأنك تشير الى طريق آخر للنجاة ٠٠ نجاتى هذه المرة ونجاتك ، وقبل أن أواجه بدورى حقيقتى المفزعة ٠٠ حقيقة ان كل هذه الذئاب والضباع هم أهلى واخوتى

الذين كنت أنتظرهم طوال الوقت ! قبل أن يصبح الحلم الفظيع حقيقة فظيعة !

كلمات تهيب بى أن أجمع كل قواى ، وأن أصحو فجأة من هذا الكابوس المروع ·· ! فهل تتحقق هذه الصحوة ·· ؟ هل تتحقق هذه الصحوة !

السيد « م ، م ، م » وحكايته
مع الوجه الذى لا يتغير ..

« مقـــدمة »

كان السيد « م ، م ، م » رجلا مهذبا حقا ، وفى طفولته كان طفلا مهذبا كذلك ، مع أنه ولد فى القرية ، فقد كانت ثيابه فى أغلب الوقت نظيفة وناصعة ، لأنه لا يلعب مع الأولاد الأشـــقياء الذين يمزقون ملابسهم ويوسخونها !

والسيد « م ، م ، م » مثل كل الرجال المهذبين الذين وجدوا أسرة متماسكة تحسن تربيتهم ، وتبعث بهم فى الوقت المناسب الى المدارس ـ بالتدريج ـ الابتدائية ، الثانوية ، الجامعة . لا تخـلو حياته من أناس يحبونه ، وأناس يكرهونه ، مع أنه قلما يتـورط فى فعل أشياء تضايق أحدا منه ، لكنه مثل كل الرجال المهذبين يدرك على نحو ما أن الحياة كذلك وان الاختلاف بل والتغير سمات طبيعية فى الناس وفى الأشياء ، لا شىء مثل الآخر ، ولا شىء يبقى على حاله وربما لهذا لا يضيق تماما بما يلقاه فى حياته وفى حياة الناس من تباين وتغير ، بل يتلقاه شبه راض ، شبه متوقع ، ومهما يكن حجم التباين أو نوع التغير !

هكذا كانت البـــداية :

متى بدأ السيد « م ، م ، م ، » يلاحظ أن ذلك الوجـــه هـــو وحـــده الذى لا يكاد يتغير ؟

لكن متى رأى ذلك الوجه لأول مرة ؟

ثم متى تأكد له أنه هو نفس الوجه ، نفس الملامح الجـــادة السمراء ، نفس العينين الغائرتين اللتين يصعب فى غير ضـــوء الشمس أن تميـــز لونهما البنى أحيـــانا ، العسلى أحيانا ، الأسود أحيـــانا ؟!

نفس الشعر الخشن الأكرت ، نفس الأذنين اللتين لم يرهمـــا أبدا لأن ثمة لاسة صوفية أو قطنية تدور حول الرأس ، تدور صيفا وشتاء لتحميهما من الحر أو البرد وتكاد أن تحجب معهما جرحا قديما فى صفحة الوجه اليمنى أو اليسرى ، وأحيانا فى الجبهة ، وآنذاك تدور اللاسة الماكرة بحق لتخفى جرح الجبهة !!

متى رأى حقا ذلك الوجه لأول مرة ؟!

يذكر أنه كان فى القرية ، أول مرة ذاقت فيها قريتهم طعـــم مياه الشرب النقية ، التى تأتى من محطة بعيدة لتنقية المياه عبـــر مواسير تمتد فى باطن الأرض ، كان صاحب ذلك الوجه الأســـمر الحاد الملامح هو الذى يحمل فأسا تختلف عن كل الفئـــوس التى يراها فى قريته ، حديدتها أكثر طولا وأكثر صلابة ، وهو الذى يحفر باطن الأرض لتمتد فيها هذه المواسير ضمن شبكة كبيرة تغطى جميع القرى وفى الحقيقة لم يكن وجها واحدا هو الذى يصنع ذلك ، ولكنه أعنى السيد « م ، م ، م » عجز فى ذلك اليوم عن أن يميز بين كل هذه الوجوه التى كانت تقوم بنفس العمل ، عجز عن أن يجد بينها فروقا واضحة ، كانت كلها سمراء لوحتها الشمس ، يبللها العرق ،

أغلبها يحمل جرحا هنا أو هناك ، ودائما كانت هناك اللاسة تكاد تخفى الجراح والملامح ، وحتى حين كان واحد منها يبدأ الغناء ، كانت كلها تغنى معه ، وهى منكفئة على الأرض تحفرها ، على المواسير تحملها وتدفنها فى باطن الأرض !

ولم يكن الفضول الشديدة يوما من صفات السيد « م ، م ، م » فقد أوصته أمه وربما أبوه بألا يهتم بما لا يفيده ، وألا يشغل نفسه بشئون الناس فليس وراءهم سوى الشر والمشاكل ، ولم يكن معنى هذا طبعا أن السيد « م ، م ، م » لا يحب الناس ولا يفعل الخير ، بل كان يكتفى بحبهم على البعد ، يتفرج على الموالد والأعراس والأعياد دون أن يشارك فيها بدور ، وحين يفعل الخير يفعله ويجرى قبل أن يراه أحد ودون أن تلمس يده يد الفقير أو السائل ، ولولا أن أصحاب هذا الوجه كانوا مسالمين جدا وغرباء ولا يتسع وقتهم لغير العمل والغناء لما قدر له أن يعرف ما عرف عنهم ! وكان حريا به أن ينسى هذا الوجه تماما لولا أن رآه مرة أخرى بعد عدد من السنين ، كان السيد « م ، م ، م » قد أصبح فتى يافعا ، سافر الى عاصمة الاقليم ليستكمل دراسته فى المرحلة الثانوية ، وكان هناك كما كان فى القرية فتى مهذبا ، كذلك جلبابه النظيف أصبح بدلة نظيفة وأنيقة ، وحجرته مرتبة ومنسقة ونافذتها تطل على أرض خلاء فسيحة ، اختار له أبوه الحجرة فى هذا البيت المنعزل بعيدا عن الضجة ، بعيدا عن رفاق السوء، حتى يذاكر فى هدوء وينجح فى تفوق ! فوجىء ذات يوم بضجة هائلة فى المكان الخالى الفسيح ، آلات ضخمة تدك الأرض ، وأيد كثيرة تحمل الفئوس التى تختلف عن الفئوس فى قريته ، وتحفر أساسا لعمارة جديدة تجرى الاستعدادات لبنائها ، ووقتها ـ ورغم تهذيبه الشديد ـ حلم بجيران ، بالتحديد بجارة حسناء تسكن فى العمارة الجديدة ولكنه وقبل أن يتحقق حلمه بالجارة الحسناء تحقق من أنه يرى نفس الوجه الذى رآه فى قريته منذ سنين . الوجه

الأسمر الملوح بالشمس والمبلل بالعرق ، لم يتغير فيه شيء ، حتى مكان اللاسة ، كان هو الذى يحفر الأساسات وينقل الطوب الأحمر فى سطور منظومة على ظهره ، ويصعد السقالات حاملا قصاع الأسمنت المعجون ، ويغنى .. ! ولا يبدو أن شيئا ما قد تغير سوى نوع العمل ، نفس العمر كأنه لم يكبر كل هذه السنين ، نفس الثياب. الوجه الواحد المتعدد !!

وفى الواقع أنها لم تكن هذه هى المرة التى انتابه فيها الرعب من رؤية هذا الوجه الذى لا يتغير ، كان قد بدأ يعرف الكثير عن هذا الوجه ، فهو قادم من أقاصى الصعيد ، وهو متنقل أبدا وراء العمل هنا وهناك ، وهو يختلف عن وجوه الفلاحين فى القرية حيث يولد الفلاح ويعمل ويكبر ويموت فى نفس القرية ، كان السيد « م ، م ، م » قد بدأ يعرف الكثير عنه وعن أشياء أخرى كثيرة ، وينسى الكثير مما يعرف ، وكانت دهشة المعرفة المتجددة لا تسمح له بالتفكير طويلا فيما يعرف ! والذى حدث أنه نسى تماما هذا الوجه بعد أن اختفى من أمام عينيه ، بعد أن ارتفعت العمارة ، وسكن بجواره كما كان يحلم وجه فتاة كالقمر ، أحبها على طريقته من بعيد ، وحقق معها فى الحلم ما كان يتمنى أن يحققه فى الواقع ، كانت الفتاة تسكن فى البيت المقابل ، أما نصائح أبويه فقد كانت تسكن فى رأسه ، ولم يكن غريبا أن ينجح فى الثانوية العامة بتفوق رغم قصة حبه التى كانت تتحرك فى رأسه مع الدروس ودون أن تصطدم بها ودون أن تتحرك خطوة خارج رأسه !

وكانت النقلة الكبرى فى حياته يوم دخل الجامعة من أوسع أبوابها ، اختار كلية العلوم رغم أن مجموعة كان يرشحه لكلية الطب ، لم يقدر على أن يتخيل نفسه يوما أمام جثة كائن بشرى يمزقها بالمشرط !

أما كيمياء البترول فهذا هو العلم الخالص الذى قد يسعد الانسان دون أن يغوص فى آلامه !

فى الجامعة اكتشف أنه لم يعرف الحب أبدا قبل هذه المرة. كانت هذه بنتا حقيقية ، يعرف اسمها ، يعرف ملمس يدها ، تتحدث اليه بصوت مسموع واضح ، صحيح فى العلوم وفى السينما وفى الكرة وفى السياسة ، ولكن لتقول له من خلال ذلك كله انها تحبه ، وبالتحديد تحب تهذيبه الشديد وتفوقه معا !!

ولم يقل لها أحبك أبدا رغم أنه كان يموت فيها ٠٠ !

ولكنه قال لها : يجب أن تهتمى بدروسك لنسافر فى بعثة واحدة الى الخارج كزوجين !

ولم يكن يجد معنى لدهشة زملائه لأنه ظل يحب بنتا واحدة أربع سنوات كاملة !

أما هى فلم تجد معنى لذلك الوجوم الشديد الذى انتابه فجأة فى نهاية تلك الليلة التى دعته فيها الى فنجان شاى فى احدى « الكازينوهات » على النيل بمناسبة عيد ميلاده ، كان هذا «الفنجان شاى » هو الهدية الوحيدة التى وافق على قبولها منها ، كما كان أقصى مغامرة حب قاما بها خلال أربع سنوات ، فى تلك الليلة كانا سعيدين ، كادا يلمسان النجوم ، فأحلامهما تبدو على بعد شهور قليلة ، النجاح والسفر والبعثة و ٠٠٠ وفجأة يقطع أحاديثهما صوت غناء ٠٠ غناء مكتوم ٠٠ قادم هذه المرة من شاطىء النهر ، لا صلة له بالموسيقى الخفيفة الهادئة التى تأتى من ميكرفون « الكازينو » فجأة يلوح فى ضوء أنوار « الكازينو » الهادئة وجه أسمر لا تكاد تتضح ملامحه ، وجه مندفع الى الأمام كأنه يوشك أن يسقط لكن حبلا غليظا يدور هذه المرة حول الكتفين ، حبلا يجر وراءه مركبا شراعيا محملا بالأوانى الفخارية ، هذا الحبل الذى يجر المركب المطوى الشراع فى عكس اتجاه الريح هو وحده الذى يمنع الوجه المنكفىء الى الأمام من أن يسقط عى الأرض ، ولكنه لم يكن قادرا على منعه من الغناء المكتوم الذى يتردد مع ايقاع

القدمين اللتين تغوصان فى أرض الشـاطىء الطينية الرخوة التى تنمـو فوقهـا الأعشـــاب !

تصورى ٠٠ الدنيا كلها تتغير عدا هذا الوجه !

نطق السيد « م ، م ، م » بهذه العبارة على نحو مفاجىء بعد لحظات صمت مفاجئة ، ثم عاد الصمت مغلفا هذه المرة بقدر من الوجوم ، لم تستطع هى أن تفهم معنى وجومه فى تلك الليلة ، معنى استمرار وجومه !؟ وعجزت الاشارات المبتسرة التى أومأ بها الى قصته مع هذا الوجه أن تعتذر لها عن وجومه فى مثل هذه الليلة وهذه المناسبة ، أو حتى أن تجعلها تفهم معنى هذه القصة ، المعنى الحقيقى لها !

★★★

لمحات عن حياة السيد « م ، م ، م » فى أوربا

ست سنوات زمن كبير جدا فى حياة الأفراد ، بل والجماعات والمسألة دائما هى ماذا يحدث خلالها ؟

أصبح السيد « م ، م ، م » الدكتور « م ، م ، م » ، وعلاقة الحب أصبحت علاقة زواج ، وتوقف طموح الزوجة قبيل الماجستير بسبب الأجور المرتفعة لدور الحضانة فى أوربا ، والأجور المنخفضة لأعضاء البعثات من مصر ، ولأسباب أخرى كثيرة لا أهمية لذكرها ، ووقعت فى حياة السيد « م ، م ، م » ثلاثة أحداث ٠ هامة ، الأول : أنه أصبح أبا لطفلتين جميلتين جدا ، الثانى : أنه لم يبصر مرة واحدة ذلك الوجه الذى لا يتغير ، ثالث هذه الأحداث وربما أهمها أن فكرته عن التغير قد تغيرت الى حد كبير !!

الواقع أن الأمانة التى نلتزمها فى كتابة هذه اللمحات من حياة السيد « م ، م ، م » تحتم علينا أن نعيد النظر فى صياغة الحـدث الهام الثانى فى حياته ، وألا نترك حرصنا على فضيلة الايجاز يؤذى فضيلة الأمانة !

فالحقيقة أن السيد « م ، م ، م » قد أبصر الوجه الذى لا يتغير خلال هذه السنوات الست عدة مرات ... فى خياله !! ويتصل بتوضيح هذه المسألة أن نوضح قليلا الحدث الهام الثالث فى حياة السيد « م ، م ، م » ونعنى به « كيف أن فكرته عن التغير قد تغيرت الى حد كبير » ! فمع أن تخصصه فى كيمياء البترول كان يقف به عند حد دراسة وجوه التغير التى يمكن أن تحدث فى حياة الانسان نتيجة لتقدم المعرفة فى مجال تخصصه والتطور المذهل فى تطبيقات هذا التقدم فى شتى نواحى الحياة .. الا أنه لم يتوقف ـ برغمه ـ عند هذه الحدود ، فقد كان يعيش كل يوم وفى كل مجال منذ سافر الى أوربا صدمة التغير ، ووجد نفسه دون أن يدرى يفكر طويلا فى معنى هذا التغير ، فى اتجاهاته ، فى معدلات سرعته ، فى المجالات التى يشملها سواء فى العلوم البحتة أم فى العلوم الانسانية ، وفى النهاية وجد نفسه يقارن بين معنى وايقاع التغير هنا وهناك فى وطنه ، ورغم كل ما كان يقرأه ويسمعه عن التغير فى بلاده فقد كانت الهوة التى تفصل بين ما يحدث هنا وهناك تملؤه بالفزع ، وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى شعر فيها برعب حقيقى حين رأى ـ فى خياله ـ الوجه الذى لا يتغير ، وحين خيل اليه أنه يسمع على البعد غناءه المكتوم ، وهو يعمل ليغير كل شىء فى بلده ودون أن يتغير ! أعتقد أننا بهذه الطريقة فى سرد هذه اللمحات عن حياة السيد « م ، م ، م » قد أسأنا الى فضيلتى الأمانة والايجاز معا فنحن لم نذكر شيئا عن الشىء الذى لم يتغير فى حياة السيد « م ، م ، م » طوال هذه السنين ورغم كل ما قلناه عن التغير ، ونعنى به تهذيبه الشديد ، وقد نجم عن هذه الواقعة أنه كان يشعر برعب حقيقى آخر يشبه ذلك الرعب الذى كان يشمله حين يرى ـ فى خياله ـ الوجه الذى لا يتغير ، كان يشعر بذلك الرعب كلما فكر فى أن اجتياز مثل هذه الهوة التى تفصل بين بلاده وبين أوربا ، أن اجتياز مثل هذه الهوة قد يحتاج الى العنف أو الى ما يشبه الجراحة الأليمة على

مستوى الشعب كله . ويبدو أننا قد نسينا تماما أن السيد « م ، م ، م » قد رفض فى بداية حياته دخول كلية الطب حتى لا يجد نفسه مضطرا لتشريح جثة انسان !!

وقد كان يريحه أحيانا ما يسمعه ـ فى شك كبير ـ من أن التغير فى بلاده يتم بلا عنف ودون اراقة دماء ، وفى كل مرة كان يسمع فيها مثل هذا الكلام كان يقول : أيمكن أن تتحقق هذه المعجزة ؟ أيمكن أن يكون هذا الكلام صحيحا رغم الدعايات المضادة العنيفة ؟ ثم عاد الدكتور « م ، م ، م » الى بلاده فى نهاية عام ١٩٦٧ .

★★★

السيد « م ، م ، م » يعود الى بلاده :

حين عاد السيد «م ، م ، م» الى بلاده فى أواخر عام ١٩٦٧، لم يكن قد فعل ذلك فى الحقيقة لمجرد أن المهمة التى سافر من أجلها قد انتهت ، بل فعله لأنه رفض رفضا قاطعا النصائح الكثيرة التى همس بها البعض فى أذنيه ، لكى يبقى هنا ، ويعمل ، ويعيش الى أن تتضح الأمور أو تنصلح !

وحين عاد كان يعرف تقريبا ما سيلقاه فى بلاده ، ومثل كل الناس كان يريد أن يعرف كيف حدث ما حدث ؟! وكان اعتقاده أنه قد يجد اجابات غير التى قرأها وسمعها فى الخارج ، وأنه سيضع يده على الحقيقة بشكل أو بآخر ، وأنه فى النهاية سيجد مع مواطنيه طريقا للخلاص ، على الأقل لبداية الخلاص !!

وظل يرى ويسمع ويقرأ : كان هناك من يقول : لقد حدث ما حدث لأن المسئولين عن التغيير فى بلاده ، قد اتخذوا العنف أسلوبا ، ولم يترددوا فى البطش بمن يخالفهم فى الرأى ، فساد الخوف ، وضاعت الحقيقة فى ظلامه ، وانكسرت روح الأمة الواحدة ، وهى تواجه الخطر الواحد !

وكان هناك من يقول : لقد حدث ما حدث لأنهم لم يتخـــذوا العنف أسلوبا لاحداث تغيير حقيقى ، ولجأوا الى الحـلول الوسطى المقيتة فضاعت البلاد وقبل أن تولد من جديد !! كان عقله مع أصحاب الرأى الثانى ، وقلبه مع أصحاب الرأى الأول ٠

(وقد رأى بعض الأطباء الذين تولوا علاج الدكتور « م،م،م » فيما بعد أن ذلك كان بداية الانقسام (الذى أصبح خطيرا) فى شخصيته والذى لم يظهر تماما فى البـــداية ، لأنه كان جزءا من الانقسام الأخطر الذى كان موجودا فى بلده كله) ٠

ودائمـا كما يقولون ، وكما كان الدكتور نفســه يعتقد : كان العمل أفضل وسيلة لالتماس الحقيقة ، والتماس الصحة ، وقد بدأ الدكتور عمله بعد فترة وجيزة مـــع العاملين فى نقـــل مصـــانع « البتروكيماويات » من مدينة السويس (التى كانت مهددة بالقصف المستمر من مدافع العدو فى الضفة الشرقيـة للقنـاة) الى مدينـة الاسكندرية !!

وفى هذه الفترة من حياته قدر له أن يرى وأن يعيش جزءا من الحقيقة ٠٠٠ حقيقة العنف الشامل الفظيع الذى لا يستهدف فردا أو فئة أو طبقة ! العنف الأعمى الذى لا يفرق بين من يحمل بندقية أو فأسا ، بين مصنع أو شجرة أو مدرسة ! العنف الذى يوحد الناس أمام المصير الواحد !! وفى هذه الفترة من حياته قدر له أن يبقى فترة طويلة غير مصدق لأمرين مع تحققه من وقوعهما تماما !

الأمر الأول أن لا يزال يحيا رغم الاصابة التى كادت تودى بحيـــاته !

الأمر الثانى أنه رأى بعينيه (ولأول مرة) الوجه الذى لا يتغير وهو يتغير ! وهو يصبح مثل بقية الوجوه !!

فحين ذهب الى مدينة السويس ـ لأول مـرة ـ رآه هنـاك ، ولـم تذهـله المفـاجأة هذه المرة ، كان هـو الذى أقـام ستائر من الأسـمنت المسـلح حـول خزانات الزيت ، وأقامهـا حـول كل المواقـع التى تحتـاج الى تحصـينات ، لم يـكن ينقصـه سوى بدلة الجنود ، وحين صدر القرار بنقل المصانع من السويس كان هو الذى يمهد الطـريق أمام الجرارات والروافع ، وحين كانت تتعطل الآلة أحيانا كان هو الذى ينقل ويجر ويسحب ، وحين كانت تجىء لحظة العنف الدامى ، كانت تصبغ كل الوجوه بلون واحـد تعجز اللاسة الماكرة عن اخفائه ، ولم يعد ذلك الوجه وحده هو الذى يحتاج الى تغطية جراحه القديمة ، فقد كانت الجراح تملأ صفحات الوجوه ! كل الوجوه !

وحين جلس الدكتور « م ، م ، م » على شاطىء البحر فى الاسكندرية فى التماس الهدوء والحقيقة ، عجز البحر عن أن يمنحه الهدوء أو الحقيقة ، ففى كل مرة كان يطالع صورته أمام أى سطح ساكن لامع كان يرى الرباط القطنى الأبيض الذى يحيط برأسه وأذنيه فى شكل لاسة تخفى وجها أسمر ، وشعرا خشنا ، وبعض الجراح !! على أن الدكتور « م ، م ، م » لم يصارح أحدا فى هذه الفترة من حياته بما كان يخيل اليه أنه يراه ، واكتفى بتجنب الوقوف أمـام الأسطح الساكنة اللامعة !!

قال الطبيب لزوجة السيد « م ، م ، م » :

ـ « ان ما يردده زوجك عن شعوره بوجود عقلين يحكمان هذا البلد عقل ظاهر طيب ، وعقل شرير خفى ، وأنه لايدرى كيف يعمل معهما ، فأحدهما يدمر ما يقوله أو يفعله الآخر ، وأحيانا يلوح أن السلطة الفعلية فى يد العقل الشرير الخفى ، وأن العنف لا يجىء من العدو وحده وأنه يخشى أن يجد نفسه متورطا فى أمر يقع به فى مصيدة العنف ! » ان هـذا الكلام يعنى أن الشرخ الذى حـدث فى

شخصية الدكتور يزداد عمقا ، فهو يعكس ما يشعر به فى داخله ، وفى هذه المرحلة من العلاج سوف تكتفى بالعقاقير المهدئة !

ـ ولكنه أصبح عازفا عن العمـل ، يكثر من الأجازات ، يسهر ويشرب منفردا ، لا شىء يثير اهتمامه ، حتى ولا طفلتيه اللتين كان يحبهما الى درجة العبادة !

ـ لا جـدوى من مناقشته فيما يفعـل الآن . لننتظر مفعول العقاقير المهدئة فى هذه المرحلة !

★★★

حادث عرضى وهام يقع فجأة

فى حياة السيد « م ، م ، م » :

كان عائدا بعد منتصف الليل ، رأســـه مثقل بالشراب ولكن روحه منتعشة ومحلقة ، لماذا يتقاتل الناس حتى الموت فى هـــذا العالم الجميل الساكن ؟؟ أغراه الشارع الطويل الخالى بأن يسرع فى القيادة ليتناغم ايقاع روحه مع ايقاع السيارة المسرعة !! لو زادت السرعة الى حد كبير جدا لتصبح فى سرعة الضوء لتحولت السيارة بمن فيها الى موجات من الضوء !! يالها من طريقـــة للانتحـــار !

لماذا يصرون على وصـــمه بالمرض ؟ وما هى الصـــحة ؟ أن يضنوا عليه بالشراب الذى يطلق اسار روحه ! اللعنة على كـــل الأصحاء ! ، الأصحاء وحدهم هم الذين يلجأون الى العنف عندما يمتلكون المزيد من القوة ! ولا سبيل الى الغاء العنف الا بتوازن القوى !

لماذا لم يحقق الله توازنا طبيعيا بين قوى البشر كهذا التوازن الذى حققه بين النجوم فى أفلاكها ، وبين الكهارب فى ذراتها ؟!

لماذا يتحتم على الانسان وحده أن يصل الى التوازن عبر بحر من الدم والعنف ثم يحدث الاختلال من جديد لأن قوى البشر تنمو بطرائق مختلفة ، وفى ايقاع مختلف !؟

أمن الضرورى أن يكون هذا العذاب ثمنا أبديا للحرية والاختلاف والتغير ؟ لماذا لا تتشابه الوجوه الا فى لحظات الفزع أو الموت ؟!

صرخة فزع هائلة تقترب منه بسرعة السيارة المسرعة ، تندفع قدمه اليمنى بطريقة لا شعورية لتدوس على « البريك » ، السيارة تتوقف بالكاد ، بعد أن تنغمس مقدمتها فى الحائط الترابى الذى يرتفع على جانب حفرة تقطع الطريق ، كيف لم يبصر هذا المصباح الأحمر الكابى ؟ ولكن هاهو يبصر بين الفزع والدهشة وفى نفس المصباح « الوجه الذى لا يتغير » ... !

يبصره وهو يخرج من الحفرة التى كان يعمل فيها وهو مغطى بأكولم التراب التى دفعتها مقدمة العربة المندفعة ! كاد يقتله ويقتل معه ! عليه اللعنة ! دائما يعترض طريقه ! « انتبه .. هنا عملية توصيل كبلات الكهرباء « شركة حسن علام » تخيل ورأسه يدور أن هناك لافتات فى طول البلاد وعرضها تحمل هذا التحذير « انتبه ... هنا رجل ملعون ... يغير كل شىء ولا يتغير .. احذروا قتله لأنه لا غنى لكم عنه » .

ـ أنت رجل أعمى ... تقود السيارة وأنت مخمور ، فاقدا لصوابك كدت تقتل الأبرياء وتقتل نفسك !

قالها شرطى المرور وهو يتفقد اجازة القيادة ودفتر السيارة ، قالها وهو يعمل بمساعدة الوجه الذى لا يتغير على نقله من سيارته الى سيارة أخرى كانت تمر بعد لحظات لتنقله الى أقرب مستشفى!

ـ الحمد لله جاءت سليمة ، ربنا ستر ! لا مؤاخذة يا بيه ! قالها الوجه الذى لا يتغير بعد أن نقله مع الشرطى الى السيارة الأخرى !

قالها مواسيا ، ومعتذرا عن التراب الذى أسقطه عليه وهو يشارك فى حمله الى السيارة !

قالها قبل أن يعود ليزيح السيارة التى كان يستقلها « م . م . م » الى جانب الطريق مع الشرطى !

★★★

ماذا قالت زوجة السيد « م ، م ، م » للطبيب ؟

ـ لا زالت حالته مقلقة ياسيدى حتى بعد عودته الى البيت ، لا يزال يتصور أنه قتل العمال الذين كانوا يحفرون الطريق ولا يصدق أنهم هم الذين انقذوا حياته !

ثم أضافت بلهجة مترددة تنم عن قلق عميق وكأنها تبوح بسر خطير !

ـ « أمس فتح نافذة الحجرة فى الطابق الثالث ، كان عامل البياض يتدلى على سقالة معلقة لدهان واجهة العمارة بالصدفة كان بجوار النافذة ، لم يكد يراه حتى أطلق صرخة عالية ، لولا لطف الله لسقط الرجل من الطابق الثالث ! ثم أجهشت الزوجة بالبكاء !

حاول الطبيب تهدئتها ، قال لها بعد أن أمر لها بفنجان قهوة .

ـ يا سيدتى ... زوجك سىء الحظ ، الحادث الذى وقع له فى الطريق جاء فى وقت غير مناسب ، فضاعف من سوء حالته ،

وعلى كل حال نحمد الله فقد كان من الجائز أن تكون النتائج أقسى !

ثم أضاف محاولا توضيح الأمور :

ـ لدى زوجك شعور عميق بذنب لم يرتكبه ، يعاقب نفسه على أشياء لا دخل له فيها ... ! ثم تابع فى لهجة اقتراح : ليتكم ـ بعد تحسن زوجك ـ تسافرون للعمل فى أى بلد عربى ! فربما ... يؤدى تغيير الظروف الى نتائج أفضل ؟!

★★★

مقتطفات من الفترة الأخيرة

من حياة السيد « م ، م ، م » :

المعلومات التى وصلتنا عن هذا الجزء من حياة الدكتور « م ، م ، م » يشوبها الغموض ، بسبب تعدد مصادرها ، ولسنا نقطع بصحة كل ما نورده هنا ، وقد جاء على ألسنة عديد من الشخصيات التى تصادف أن تقابلت معه أو عملت فى عدد من البلدان العربية المنتجة للبترول التى تنقل بينها التماسا للطقس المناسب لصحته ومزاجه !

★★★

★ هناك رأى حظى بما يشبه الاجماع عن تحسن واضح فى الصحة العامة والمزاج والدخل ، ويقال ان هذا التحسن وصل الى قمته بعد حرب أكتوبر المجيدة ، حتى أنه فكر بعدها فى العودة فورا الى وطنه ، ولكن زوجته من ناحية ، وأخبار الأزمات

الاقتصادية فى بلده من ناحية أخرى توقفتا بهذه الفكرة عند حدود التفكير الدائم فيها !!

★★★

ـ « يزعم بعض الرواة أن التدهور المفاجىء الذى حدث فى صحة الدكتور « م ، م ، م » سببه المباشر تمزقه بين رغبته الملحة فى العودة الى بلده ، وعجزه عن تنفيذ هـذه الرغبة (اختلفت الأقوال فى أسباب هذا العجز) ٠

بينما يضيف بعض الأصدقاء ذوى الصلة الحميمة بالدكتور أن السبب الحقيقى « هو الطريقة الغريبة والمفاجئة التى بدأ يظهر بهـا الوجه الذى لا يتغير فى تلك البلاد التى تنقل بينهـا الدكتور « م ، م ، م » كان يظهر فجأة وبأعداد كبيرة فى أماكن خالية ثم يختفى لتظهر فى مكانه عمارات وطـــرق مرصوفة ، ومستشفيات وفنادق ونواد وحدائق !! » ٠

★★★

« يزعم بعض من عادوا أخيرا من آخر بلد استقر بها الدكتور « م ، م ، م » أنه لقى حتفه فى حادث سيارة ، آخر سيارة اشتراها ، وقد كان يقودها وهو فى حالة سكر بينة » كدنا نصدق هذه الرواية لانقطاع أخبار الدكتور « م ، م ، م » عن كل أصدقائه ، ولكن عدم عودة زوجته وابنتيه من ناحية وعدم ظهور نعى رسمى له فى صحف بلده أو فى صحف البلد الذى كان يعمل به ، جعلنا نفسح مكانا ـ فى هذه المقتطفات ـ لرواية أخرى ـ كنا نتردد فى قبولها لأسباب سترد خلالها !!

الرواية الأخـرى :

تقول هذه الرواية : ان الدكتور « م ، م ، م » لم يمت تماما ، ولكن المصير الذى انتهى اليه لا يختلف كثيرا عن المـوت ، بل ربما كانت اشاعة موته أكرم كنهاية !

تقول الرواية ـ وهى تنسب فى الجزء الأخير منها الى زوجته ـ ان حادث السيارة صحيح ، وأن الدكتور حين فتح عينيـه بعـد اصابته وهو بين الحياة والموت وجـد أن الوجه الذى لا يتغير هو الذى يندفع الى سيارته المحطمة ليخرجه منها وينقله الى سـيارة الاسعاف ٠

(ان هذا الجزء المبنى على مصادفة غريبة هو الذى جعلنـا نتردد فى قبوله ، ولكن لا شىء سوى هذه المصادفة يجعلنا نتقبل النهاية المبنية عليها) ٠

تقول الزوجة : لقد وقع الحادث بجوار بناية كبيرة كان يعمل فيها « الوجه الذى لا يتغير » باعداد كبيرة ، وكانت شاحنة ضخمة تحمل شكائر الأسمنت الى هذه البناية هى التى صدمت سـيارة الدكتور وحطمتها تماما ثم تضيف الزوجة : « فى فترة العـلاج التى لزم فيها الدكتور « م ، م ، م » سرير المستشفى ، حلم أنه مات فى حادث السيارة ، وأن أحدا لم يتقدم لاخراج جثته من السيارة المحطمة ، لقد هرب سائق الشاحنة بعد الحادث متخليا عن كـل مسئولية ٠ وكان ما يخافه الدكتور وهو ميت فى هذا الخلاء ، أن بعض الوحوش قد تجىء وتمزق جثته ٠٠٠ لقـد ظل يقتله الخوف خلال موته حتى ظهر الوجه الذى لا يتغير ٠٠٠ بأعداده الكبيرة فى المكان الخالى ٠٠٠ وحملوه الى مقبرة حفروها بفئوسهم التى تختلف عن فئوس الفلاحين فى قريته ، ثم دفنوه فيها ، ووقفوا على حافة المقبرة ليهيلوا فوقه التراب بنفس الفئوس ، وآنذاك استيقظ الدكتور

« م ، م ، م » من الموت صارخا ، ليروى الحلم المفزع لزوجته ..
ثم يقول بصوت متقطع آخر كلمات نطق بها ـ لم أكن أتصور أنه يخفى وراء وجهه المسالم كل هذا العنف ! ثم تقول الزوجة : ان زوجها لا يزال يعيش ولكنه عازف عن أى كلام !

★★★

كلمة أخيـرة

اننا ننقل هذه الرواية على مسئولية رواتها نقلا عن الزوجة وعلى مسئوليتها ، ويضيف هؤلاء الرواة : أنهم أوجدوا عملا لهذه الزوجة تقديرا لخدمات زوجها ولتتحمل مسئولية حياتها وحياة البنتين ! وهذا هو السبب فى عدم عودتها الى بلدها !

ملحوظة أخيرة :

سوف نعيد كتابة النهاية لهذه اللمحات من حيـاة السـيد « م ، م ، م » فى ضوء أية حقائق جديدة يمكن أن تظهر !

الى من يهمهم الأمر

كما ترى من العنوان هذه ليست قصة ، وقد يزعم بعض المغرضين أنها كذلك ، ورجائى ألا تصدقهم حتى يتبين لك الأمر ، ورجائى أن تصدقنى فى أنها مجرد « طلب » يمكن اذا أردت أن تضيف اليه صفة « عاجل » لمن يهمهم الأمر ، ومن فى يدهم القدرة على التنفيذ ٠

« طلب » ينتظر منك شيئا أكثر من مجرد قراءته ، ينتظر منك توقيعا بالعلم ، ورجاء بسرعة التنفيذ ، هذا طبعا بعد اقتناعك بما يجىء فيه ٠

أخشى أن الشك بدأ يتسرب اليك فى جدية هذا الأمر أو فى جدواه ، فأنت فى الغالب تعرف مصير مثل هذه الطلبات ، ويقينا أنه قد سبق لك أن وقعت العديد منها ، وانتظرت ـ دون جدوى ـ أن يهتم أحدهم بطلبك ، ولكن الأمر يختلف قليلا هذه المرة فنحن لن نتوجه بطلبنا هذا الى أحد من سادة البيروقراطية فى هذا العصر الذين تنحصر مواهبهم فى تعطيل مطالب البشر واحباط أمانيهم

الطيبة ، بل نتوجه به الى سادة العصر الحقيقيين ، الى السـادة العلماء والمخترعين الذين أثبتوا دائما وفى كل الظروف أن انجازاتهم أكثر سرعة وقدرة من أحلام البشر ٠

وفى الحقيقة نحن لا نكتب اليهم لهذه الصفة وحدها ، وانما ـ وهذا ما أعتقد أنك سوف توافق عليه بعد الالمام بهذا الطلب ـ لأنهم هم الذين تسببوا ـ بحسن نية طبعا ـ فى حدوث هذه المشكلة التى يتضمنها هذا الطلب ٠

كان يجب منذ البداية أن أعرفك بنفسى وبالمشكلة ، وبالنسبة للأمر الأول فأظن أنه يكفى جدا أن تعلم أننى واحد من العاملين فى الدولة ، أية دولة ؟ لا يهم ٠ فكل الدول فى عصرنا هذا ترفع نفس الشعارات ٠

هل هناك دولة لا تزعم أنها تسعى جاهدة لكى توفر لرعاياها كل فرص السعادة ؟

هـل هناك دولة لا تزعم أن توفير هـذه الفرص رهن بتوفير الحرية والكفاية والعدالة ؟

هل هناك دولة لا تزعم أن العمل الجماعى المنظم الذى يعتمد الأسلوب العلمى تفكيرا وتطبيقا هو الطريق الصحيح لتوفير الحرية والكفاية والعدالة ؟

وبالتالى فما معنى أن أحدد الدولة ما دامت كل الدول تعلن نفس الأهداف لدرجة تجعلك تدهش لأمر واحد هو اصرارها رغم ذلك على أن تعيش كل دولة داخـل حدودها فقط ، واستعدادها للدفاع حتى الموت عن هذه الحدود لو مستها دولة مجاورة ٠

أظنك توافقنى على أن أبدأ بتحديد المشكلة ؟

والمشكلة ببساطة تبدأ مع تطبيق الهدف الثالث المشار اليه سابقا ... أعنى حرص الدولة على العمل الجماعى المنظم فالدولة التى أنتمى اليها توقظ كل العاملين من أبنائها فى تمام الساعة السادسة ليكونوا فى أماكن عملهم فى تمام الساعة السابعة والنصف تقريبا ، وفى الحقيقة أن الدولة لا توقظهم بالمعنى الحرفى لهذا التعبير ، فهذا أمر بالغ الصعوبة من الناحية العملية ، ولكنها تترك لهم حرية اختيار الطريقة التى بها يستيقظون ، انها تكتفى بأن تحاسب من يتأخر منهم عن موعد حضوره فى السابعة والنصف بشكل يجعله يفكر جديا فى الطريقة التى يكون بها فى أعلى درجات اليقظة فى تمام الساعة السادسة ٠

لم أكن أدرك بهذا القدر من الوضوح ، قبل أن أصبح واحدا من العاملين فى الدولة ، أن الساعة السادسة هذه تأتى مبكرة جدا فى فصل الشتاء ، وخاصة فى لياليه الباردة ، وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بالوضوح اللازم أيقنت أنه من الخطأ بل ومن الخطر أن أعتمد على تقديرى الذاتى للوقت ، واحساسى العام بضوء النهار أو حركة الحياة فى الشارع لاستيقظ فى الوقت المناسب فالواقع أنه حتى الطيور فى دولتنا لا يمكن الوثوق أو الاعتماد على تغريدها فى الوقت الملائم ٠

وكان لابد أن ألجأ الى من يهمهم الأمر فى عصر العلم والتكنولوجيا لمساعدتى فى الخروج من هذا المأزق ، وكانوا ـ كما سبق أن ألمحت ـ عند حسن ظنى ، لقد أمدونى بذلك « المنبه » العجيب الذى يدق فى الوقت المناسب جرسا ناعما يتموج صوته فى درجات تعلو وتهبط ، ولا يصمت الا بعد أن أكون قد استيقظت تماما ، وجلست فى السرير مدركا لحدودى وأبعادى متذكرا اسمى ووظيفتى ، مبصرا أهم معالم الحجرة ، عارفا بما يجب على أن أفعله بعد ذلك ٠

ومرت أيام كثيرة قبل أن ألتفت الى هذه الحقيقة الغريبة ، حقيقة أن المنبه لم يعد يوقظنى ـ وللأمانة التاريخية أسجل أننى فى خلال هذه الأيام الكثيرة كنت خلال أحاديثى الخاصة أشيد بفضل المنبه العجيب ، وأحرص على أن أقدمه للضيوف منوها بميزاته الفريدة ، ولكننى سرعان ما أقلعت عن هذه العادة السيئة بعد أن اكتشفت ـ وقد كان ينبغى أن أعرف ذلك من نفسى ـ أن جميع الضيوف والأصدقاء لديهم تقريبا نفس المنبه الذى لم يعد عجيبا ، ما الذى كنت أقوله قبل ذلك ؟

أجل كنت أقول ان المنبه لم يعد يوقظنى ، نعم بدأت أدرك أننى أستيقظ وحدى فى الموعد الذى دربنى عليه المنبه جيدا ، ومدركا لكون المنبه العجيب لا يزال يدق بجوارى دقاته الرتيبة أستيقظ وحدى وأظل أتقلب فى الفراش مدركا لحدودى وأبعادى العادية ثم تجىء الساعة السادسة عادة بعد أن أكون قد صحوت تماما فيرسل جرسه المتموج الذى كنت أستيقظ عليه ، ويصبح دورى بعد ذلك أن أمد يدى لأسكت صوت الجرس ٠

فى البداية بدا لى الأمر كمزحة ، ثم بدأت أشعر به كخدعة ثقيلة أن يصبح دورى هو أن أصحو كل صباح لأسكت صوت المنبه الذى يصر على أن يدق فى نفس الموعد ، وكأننى لازلت فى أمس الحاجة اليه ٠

وفى الحقيقة اننى مدرب منذ وقت بعيد على طرد مثل هذه الأفكار المزعجة فسرعان ما طردت هذه الفكرة السخيفة وأعنى بها فكرة الخداع هذه عن رأسى بعد أن رددتها الى أصولها العميقة الكامنة فى ميل الجنس البشرى الى الجحود والنكران ، صحيح اننى

لم أعد فى حاجة الى أى منبه ، وأن المنبه هو الذى فى حاجة الى لأسكته فى الوقت المناسب ، ولكنى لا يجب أن أنسى بأية حـال أنه هو الذى قام بزرع منبه آخر ·· يدق فى داخلى دون صـوت ، ويجعلنى أصحو قبل الوقت المناسب من تلقاء نفسى فلماذا ننسى فضل ذوى الفضل فى أول لحظة لا نحتاج فيها الى فضلهم ·

وهكذا نجحت فى أن أعيد علاقتى «بالمنبه» ـ الذى لم أعد فى حاجة اليه ـ الى اطارها الصحيح الذى ينبغى أن يقوم بين الانسان والآلة حين يصبح الانسان نفسه من بعض نواحيه نوعا من الآلة ، أعنى حين تصبح له فضائلها الأثيرة كالدقة والنظام والانضباط ، وقد كان حريا بالأمور أن تمضى بينى وبين منبهى العزيز على هذا النحو الموضوعى الهادىء لولا أن تدخلت أيـام الجمع والأعياد والعطلات الطارئة لتفسد هذه العلاقة ·

أعتقد أننا قد وصلنا الآن الى النقطة الحاسمة فى المشكلة واذا كنتم مثلى من العاملين فى أية دولة من هذه الدول التى تأخذ مأخذ الجد البند الثالث من الأهداف السابقة فأغلب الظن أنكم سـوف تفهموننى جيدا ولن تبخلوا بتوقيعكم على هذا الطلب وعند نهايته ·

فى أيام العطـلات وبالتحديد فى أيام الجمـع التى ننتظرها جميعا بفارغ الصبر خاصة فى أيام الشتاء لتنعم بدفء الفراش ، وبمتعة أن يبقى الانسان نائما على راحته ، مسلما نفسه للأحـلام ولهذه الرؤى التى لا تدرى هل تنتمى الى النوم أم الى اليقظة ·

بمتعة أن ترى على مهل هذه اللحظة السحرية التى يفقد فيها العالم كثافته ، ويصبح أكثر رقة وعذوبة وسيولة ، اللحظة التى تذكر فيها بلا مناسبة أشياء مرت منذ عشرات السنين ، ووجوها لم تعد تلقى أصحابها ، وتسمع رنين ضحكات يعجز الزمن عن أن يسكت أصداءها فى نفسك ·

هذه اللحظة التى يتنقل فيها الانسان بين مملكة اليقظة ومملكة النوم دون أن يدرك أن ثمة حدودا فاصلة ، ودون أن يطلب منه أحد أن يبرز هويته ٠

هذه اللحظة التى تتلاشى فيها حدود الزمان والمكان ، وتسقط كل الأقنعة ، ويضحك الأطفـــال وعيونهم مغلقة وقـد يبكى الملوك ورؤساء الجند ، وتتذكر وعدا لم تف به منذ أعوام ، وينسى الرجال الشجعان أنهم كذلك ، وينادون أمهاتهم اللواتى مضت على موتهن عشرات السنين ٠

هذه اللحظة التى عاشت فى كل العصور الماضية ، دون أن يطلق عليها الرصاص ، ولم يصدر ضدها حكم واحد فى كل محاكم التفتيش والتى تسعى لكى تبقى فى عروق المستقبل كما يبقى نسغ الحياة فى أوراق الشجرة وجذورها ٠

هذه اللحظة التى تلتقى بها مرة كل أسبوع هى ما أسعى أيها السادة الى انقاذه بعد أن تبين لى ذات صباح يوم من أيام الجمع أن المنبه الذى كان أثيرا قد تسبب ـ ربما بلا قصـد ـ فى اصـابتها اصابة توشك أن تفضى الى الموت ، ودعونى أشرح لكم الأمر ٠

أعرف أنكم جميعا فى مساء كل خميس لا تنسوا أن تضغطوا على زر صغير فى منبهاتكم حتى لا يدق الجرس فى موعده كل صباح وحتى تلتقوا بلحظتكم الغالية فى صباح الجمعة ٠

ومثلكم أيها السادة فعلت نفس الشىء ، وأعتقد أنكم مثلى بدأتم تكتشفون حقيقة الجريمة فى صباح كل جمعة ، الجريمة التى يبدو « المنبه » ـ الذى كان عجيبا ـ بريئا منها براءة الذئب من دم يوسف ، صحيح كان لا عجب لدق جرسه المتموج ، ولكن المنبـــه الآخر الحقيقى لا يزال يدق فى موعده ، يدق بداخلنا دون أن يملك أحد أن يمد يده الى مكانه فى عقولنا ليبطل مفعوله أو ليوقف جرسه الذى يعـلو ويهبط ٠

جميعكم أيها السادة تمرون دون شك بهذه التجربة لو أنكم تعملون فى دولة من هذه الدول التى تنعم ببركات العصر التكنولوجى وتعنى بصفة خاصة بتنفيذ البند الثالث ٠

جميعكم دون شك تستيقظون مثلى على درجات مثل درجات السلم الحقيقى أو الموسيقى ، وفوق احدى درجات التذكر تذكرون أن اليوم هو يوم الجمعة ، ولكن ذلك يحدث عادة بعد فوات الأوان ، بعد أن تكون اليقظة الحادة اللعينة التى يحدثها المنبه الداخلى قد غرست أنيابها فى جسد اللحظة الناعمة الغضة ، بعد أن تكون قد قتلها قتلا ومضت بنا بعيدا خارج اطار القدرة على أن نعود الى تلك الأرض السحرية التى تتلاشى فيها الحدود بين اليقظة والنوم ٠

اننى أيها السا ةدأحمل المنبه ـ الذى يبـدو بريئا ـ كل المسئولية وأحملها لكل الدول التى تعنى عناية خاصة بالبند الثالث٠

وأعرف أن بعض المغرضين ، أولئك الذين سـبق لهم أن زعموا أن هذا الطلب الجاد جدا والعاجل كذلك مجرد قصة هازلة أعرف أنهم سوف يأخذون الأمر مأخذ السخرية ٠

وقد يقولون : فى الوقت الذى تمر فيه دولنا بأقسى الأزمات ويقتل المئات بلا معنى ، يأتى رجل غير مسئول ويطالب بانقاذ لحظة للحلم ، ويروى لنا بعض الفكاهات التى تنقصها الفكاهة عن المنبه ٠

اننى أيها السادة أرجوكم ألا تلتفتوا كثيرا الى هؤلاء المغرضين فهم موجودون دائما فى كل زمان ومكان ولن ينجح أعظم المخترعين فى القضاء عليهم ٠

وفى نفس الوقت فاننى أنبه ـ دون منبه ـ الى خطورة المسألة التى يتضمنها هذا الطلب ، ولست أدرى كيف يمكن أن تكون صورة الانسانية لو أن هذه اللحظة السـحرية قد ماتت فى حـاضرها أو مستقبلها ٠

وأؤكد لكم أننى لا أهزل لو زعمت أنه ربما كانت كل هـذه الأزمات الحادة التى يهتم بها المغرضون الذين ألمحت اليهم سببها ذلك العدد الكبير من المنبهات الذى استشرى فى العالم منذ وقت ليس بالقصير ٠

اذا اقتنعتم معى أيها السادة بجدية الأمر وخطورته فأظنكم توافقوننى على أن نتوجه بمطلبنا هـذا مشفوعا بتوقيعاتكم الى المسئولين الحقيقيين عن هذا التهديد الخطير الى لحظة الحلم الذهبية الى سادة عصر التكنولوجيا أولئك الـذين اخترعوا المنبـه الأول العجيب ليخترعوا لنا منبها آخر مضـادا يجعلنا نتذكر فى الوقت المناسب اليوم يوم الجمعة دون أن توقظنا الذكـرى أو تأتى بعـد فوات الوقت ٠

انهم يخترعون الصاروخ المضاد للصاروخ فهل يعجزون عن اختراع منبه يجعلنا ننتبه دون أن يوقظنا الانتباه ٠

ان ثقتى كبيرة فى سادة هذا العصر ، وفى الحصـول على توقيعك الكريم لو لم تكن أنت نفسك واحدا من المغرضين ٠